من بيان القرآن
في وصف الوجوه يوم القيامة

"دراسة تحليليّة"

إعداد/ د.حيوة عدلي محمد رزق
أستاذ البلاغة المُشارك

قسم اللُّغة العربيّة
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

من بيان القرآن في وصف الوجوه يوم القيامة
(دراسة تحليلية)

المستخلص

ركّز هذا البحث على دراسة مُعظم الآيات الواردة في وصف الوجوه يوم القيامة _دراسة بيانيّة تحليليّة_ وهي:

(الآيات ١٠٦-١٠٧ سورة آل عمران، ٢٦-٢٧ سورة يونس، ٤٩-٥١ سورة إبراهيم، ٢٢-٢٥ سورة القيامة، ٣٨-٤١ سورة عبس، ٢-٤ و ٩-١١ سورة الغاشية).

كما اتبع المنهج التالي في التحليل:

أ- ذكر نصّ الآية.

ب- المعنى العام لها.

ج- مناسبتها في السّياق.

د- دراسة الألفاظ لُغويًا، لغويًا، صرفيًا، لبيان دقّتها في موضعها، كذا دراسة تراكيبها وما تميّزت به بلاغيًا.

ومن خلال هذه الدّراسة اتضحت النقاط التالية:

- إنّ وصف الوجوه يوم القيامة مرتبط ارتباطًا وثيقًا بأعمال أصحابها، فالبياض والإشراق والنّضارة والضّحك والاستبشار والنّعومة والرّضا لوجوه المؤمنين الذين عملوا في دنياهم استعدادًا ليومهم الموعود. والسّواد والاكتئاب والغبرة والقتام والغبار والنّصب والغضب لوجوه الكُفّار ولأكذبين.
- هذا فضلاً عن أنّ بعض هذه الآيات اعتنت بالوصف الخارجي للوجوه، بينما تناولت الأخرى وصفًا للحالة النفسيّة المُؤثّرة على تلك الوجوه.

- ورغم هذا الاختلاف في جوانب الوصف وطريقته، إلاّ أنّنا نجـد في القرآن الكريم ـ كعادته ـ نسقًا بديعًا وبلاغة عالية وقُدرة أسلوبيّة فذّة ونظمًـا مُتفردًا، يُحظيك المعنى في تصحيح لفظ وبلوغ تركيب وأجمل جرس وأفضل أداء.

ولعلّ هذه المميّزات هي أهم ما سعى البحث لتوضيحها من خـلال التحليـل الذي وظّف علوم البلاغة الثلاثة لبيان ما تميّزت به الألفاظ من دقّة وفصاحة وطـلاوة، كذا بيان ما امتازت به التراكيب من قُوّة وإشراق وتمكّن وإبداع.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق والمُرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.. القائل: "وإنّ من البيان لسحراً" .. وبعد..

فهذا عمل متواضع أتناول فيه دراسة مُعظم الآيات الواردة في وصف الوجوه يوم القيامة، دراسة تحليليّة. ولعلّ من أهمّ أسباب اختيار هذا الموضوع:

هو أنّه موضوع في مجال الدّراسات البيانيّة في القرآن الكريم، لأنّه كما نعلم أنّ القرآن بنبوع ثر العطاء، لا ينضب على كثرة الأخذ منه... فضلاً عن جاذبية مذاقه وطرف وروده وحلوّ الجهد المبذول فيه.

هذا فضلاً عن أنّ هذه الآيات ـ موضع الدّراسة ـ كثيرًا ما كنت أقف عندها وقوف راغب في الغوص في أعماقها للبحث عن بعض أسرارها وجمال تعبيرها وجلاله، لاسيّما وأنّها لم تُدرس بصفة مستقلّة قبل ذلك.

كما لا يستبعد على أيّ مؤمن رغبته في معرفة ما هي صفات الوجوه يوم القيامة ـ التي رُزق أصحابها نعمة الإيمان والعمل في دنياهم من أجل ذلك اليوم الموعود.

هذا وقد وجدت في اختيار دراسة هذه الآيات حافزًا لكلّ قارئ لها في الاستزادة من الأعمال الصّالحة ليكون في ذلك اليوم ممّن ابيضّت وجوههم وأشرقت بشرًا وفاضت نضرة وسعادة ونظرت إلى ربّها نظرة فوز وشكر واطمئنان، ولئلّ لا يكون هذا حافزا وقد اسودّت وجوه أخرى وأرهقتها القتار والخزي والكآبة لسوء ما قدّمت في دنياها فكان جزاؤها الخوف والفشاوم والحرمان من فضل الله ورؤية وجهه الكريم ـ سبحانه وتعالى ـ.

أمّا منهج البحث فقد استقرّ في:

تمهيد اشتمل على التعريف بمعنى الوصف في اللّغة ثُمّ في الأدب وبيان أهمّيّته عند بعض النّقّاد القُدامى والمُحدثين مع ذكر بعض النّماذج من وصف الشّعراء، وبيان أهم ما التفت إليه العرب في وصفهم، وأثر ذلك على ما نتج من قرائح الأدباء بصفة عامة، ولعلّ السّبب في هذا التّمهيد هو بيان تأثير هذا الفنّ على مشاعر السّامعين وتفاعلهم معه، فضلاً عن نقله للمعاني النّظريّة المُجرّدة في قالب حسوس تشهده الأنظار فتعاطف معه أو تكرهه فتنفر منه.

ومن هنا كانت نقطة التّطرّق في البحث، إذ لعلم البحث ـ بداية ـ بالحديث عن الوصف في القرآن وبيان طرقه وأهمّيته ثمّ موضوعاته وتأثيره، وبيان أهم ما تميّز به عن غيره؛ إذ يكفيه تميّزًا إنّه وصف الخالق ـ عزّ وجلّ ـ وشتّان بين أسلوب البشر وأسلوب القرآن الكريم.

ولبيان ذلك توجّه البحث إلى دراسة مُعظم الآيات التي اهتمّت بوصف الوجوه يوم القيامة إذ لم يسبق لأحد ـ حسب علمي ـ دراستها مستقلّة ـ في عمل واحد ـ قبل ذلك؛ لتكون كلّ آية نموذجًا حيًّا يُبيّن صفات الأسلوب القرآني وتفسّره بيانيه في بديع نظمه وعجيب تأليفه ودقّة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، فضلاً عن دقّة وصفه وبراعته مع قدرته على التأثير في سامعه أو قارئه ونقله للصّورة في أيسر أسلوب وأبلغه.

وهذه الآيات هي: (١٠٦-١٠٧ من سورة آل عمران، ٢٦-٢٧ سورة يونس، ٤٩-٥١ سورة إبراهيم، ٢٢-٢٥ سورة القيامة، ٣٨-٤١ سورة عبس، ٢-٤ و ٩-١١ سورة الغاشية).

هذا وقد اتبع البحث منهجًا واحدًا في دراسة الآيات الكريمات وتحليلها، يبدو هذا المنهج في النّقاط التّالية:

أ- ذكر الآية.

ب- بيان المعنى العام لها وأسباب النزول إن وُجد.

ج- مناسبة الآية للسّياق.

د- دراسة الألفاظ والتّراكيب.

كما لم يغفل البحث -في نهايته- التعقيب على بعض الآيات الواردة في التّراجمة وإجراء بعض الموازنات عليها نظراً لتشابه بعضها واختلاف بعضها عن بعض.

أمّا الخاتمة، فكانت نهاية الرّحلة السّعيدة ومرفأ السّفينة بعد طول إبحار، بسطت خلال سطورها أهم ما حصلت عليه الغواصة في رحلتها من در وصدف وأحجار كريمة، زادت من متعتها وألهمتها في التزيد وتكرار الرّحلة في جهة أخرى من ذلك البحر الزّاخر مرّات ومرّات.

تمهيد:

معنى الوصف في اللُّغة:

جاء في مقاييس اللُّغة: "الواو والصاد والفاء أصل واحد، هو أمانة الشيء، ووصفتُه أصفه وصفًا. والصِّفة: الأمارة اللازمة للشيء".[1] "يُقال الصف الشيء في عين الناظر احتمل أن يوصَف".[2]

ويُقال للخادم وصيف وللخادمة وصيفة، كذا يُقال: أوصفت الجارية؛ لأنهما يوصفان عند البيع.[3]

وإذا بلغ الغلام حدّ الخدمة يُقال عنه وصَّف الغلام، فهو وصيف بيّن الوصافة. والجمع وُصَفاء.[4]

وقولك استوصفت الطّبيب لدائي، إذا سألته أن يصف لك العلاج[5]، وقال ثعلب: "وربّما قالوا للجارية وصيفة بيّنة الوَصَافَة والإيصَاف، والجمع الوصائف".[6]

معناه في الأدب وأهميّته عند بعض النُّقاد:

والوصف في المفهوم الأدبي "هو ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات"[7]، وقيل: "هو الكشف والإيضاح"[8].

---

(1) أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس، **معجم مقاييس اللُّغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، 1376هـ، مادة (وصف).

(2) المصدر السّابق، مادة (وصف). (بتصرّف)

(3) المصدر السّابق، مادة (وصف). (بتصرّف)

(4) إسماعيل بن حمّاد الجوهري، **الصّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربيّة**، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط2، القاهرة، على نفقة الشيخ حسن مأمون شرتلي، 1982م، (وصف) (بتصرّف)

(5) المصدر السّابق، مادة (وصف).

(6) المصدر السّابق، مادة (وصف).

(7) أبو الفرج قدامة بن جعفر، **نقد النّثر**، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1978م، ص215.

(8) أحمد الشّايب، **الأسلوب دراسة بلاغيّة تحليليّة لأصول الأساليب الأدبيّة**، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، 1947م، ص9.

وهذا المفهوم يعتبر الأدب الإشاراتي ـ كما هو معلوم ـ هو مجال الوصف لأنه مرآة لنفس صاحبه، كما هو مرآة لعصره وبيئته، كلّما عظم حظّه من الجودة والإتقان، لهذا فهو مُتغيّر قابل للتجديد دائمًا. وهو أيضًا متفاوت بين الجَـودة والـرّداءة، وفي الحظ من الاتصال بنفس صاحبه والبُعد عنها، وفي المحافظة والتطرّف والاعتـدال... إلخ"[٩].

هذا وقد اقترن الوصف ـ منذ البداية ـ بالحرص على نقـل مـا في العـالم الخارجي من جزيئات في صور أمينة عاكسة للمشاهد الخارجيّة بحرص شديد حتّـى إنّ بعض النُّقويين اعتبر الشّعر "وثيقة تاريخيّة" لدراسة المعارف المتصلة بحياة العـرب[١٠] وهم بذلك يتعاملون مع الوصف على أنّه لا يتعدّى عن نقـل الأشـياء كمـا شوهدت من غير إبداع أو تغيير.

ثُمّ لمّا تمت هذه النظرة وازدادت مع تطوّر النقد العربي، وازدهار فنّ الوصف في الشّعر وأصبح فنًّا مُستقلاً كاملاً، والمديح. ثُمّ ازداد ارتباط فنّ الوصف بالمحاكـاة فأصبحت الصّورة الوصفيّة الناصعة "هي التي تنقل العالم الخارجي لتعكس في خيال المُتلقّي مشاهده المحسوسة إلى الدّرجة التي تجعل المُتلقّي يشعر أنّه في حضرة المشهد نفسه ويُعاينه"[١١]. لذا عرّف قُدامة الوصف بتعريفه السّابق.

والآمدي يُوافق قُدامة في رأيه ويرى أنّ حذق الشّاعر لا يكون إلاّ إذا صـوّر لك الأشياء بصورها و بلغ على الجانب البصري في شعر الوصف أو ما يُسمّى عنده بـ(العين الشاهد).[١٢]

---

[٩] طه حسين، في الأدب الجاهلي، ط١٨، القاهرة، مكتبة دار المعارف، دون تاريخ، ص٣٤ (بتصرف).

[١٠] عاطر صبحي، الصّورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط٣، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م، ص٣٦٣ (بتصرف).

[١١] المرجع السّابق، ص٣٦٩-٣٧٠.

[١٢] الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيّد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، ط١٩٧٨م، ج٢، ص٣٧١. (بتصرف)

أمّا أجود الوصف عند العسكري فيبدو في قوله: "إنّ أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف، حتّى كأنّه يُصوّر الموصوف لمن تصفه، فتراه نصب عينيك" [١٣].

ويرى ابن رشيق أنّ أحسن الوصف هو "ما أُتِيَ به الشيء حتّى يكاد يُمثّله عيانًا للسّامع" [١٤].

كما يرى حازم أنّ "المحاكاة التامّة في الوصف هي استقصاء الأحوال التي بها يكمل تخيل الشيء الموصوف" [١٥].

ومعلوم أنّ المحاكاة لا تخرج عن أمور ثلاثة إمّا تصوير الواقع كما هو، أو أفضل ممّا هو ـ وهو ما يُدعى بالتحسين للتهويض هذا الواقع ومُعالجة ما فيه، أو أقلّ ممّا هو عليه، أي كما يعتقد النّاس، وهنا تتضح قضايا نفسيّة ووجدانيّة تُسهّل إساغتها لدى الجمهور المُتلقّد فيها. [١٦]

هذا ويُعدّ القصيدة الوصفيّة عبارة عن محاكاة لما في الطّبيعة، تتمثّل فيها الفعاليات الشّاعر تجاه ما يرى ويسمع. ومنها تستطيع أن تستشفّ تأثّره بصور القبح والجمال التي يقع عليها في بيئته [١٧]، وقد يُضفي على حقيقة ما يراه شيئًا من تفاؤل

---

(١٣) أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري، **كتاب الصناعتين (الكتابة والشّعر)**، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ورفيقه البجاوي، ط٢، القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٢م، ص١٢٤.

(١٤) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، **العمدة في محاسن الشّعر ونقده**، تحقيق محمّد محيي الدين عبدالحميد، ج٢، القاهرة، المكتبة التجاريّة، ١٩٥٥م، ص٢٩٦.

(١٥) أبو الحسن حازم القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص١٠٥.

(١٦) محمد عيني هلال، **النقد الأدبي الحديث**، ط٣، بيروت، دار النّهضة، دار العودة، ١٩٧٣م، ص٩٧-٩٨. (بتصرّف)

(١٧) عزّ الدّين إسماعيل، **الأسس الجماليّة في النقد العربي (عرض ونقد ومقارنة)**، ط٣، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م، ص١٣٦. (بتصرّف)

نفسه أو تشاؤمها، إكبارها أو ازدرائها...إلخ،ومن هنا اختلف أسلوب الوصف وتنوّع تنوّعًا واضحًا "فوصف الحسيّات غير وصف المعنويات،ووصف الحروب يختلف عن وصف الشاطر الجميلة،ولغة الأصوات المدوّية تُغاير لغة الأنّات الرّقيقة"[٢٨].

وهكذا تعود معظم الفنون الشّعريّة إلى فنّ الوصف؛ فالحماسة في الحرب، والنّسيب في الجمال، والمدائح في الفضائل، والرّثاء في الخَرَد، وبقيّة ذلك الأسلوب المتلقّى للتّعبير عن الغرض؛ فتكون الجزالة والفخامة واللّوّة مع الحروب وإثارة الحماسة، ومع أصوات الطّبيعة والمواقف المفرحة، وتُختار السّلاسة واللّين مع وصف رقّة العواطف في الحبّ؛ والعتاب والاعتذار أو الطّرب واللّهو، أمّا الخلابيّة والاستعارة والإشراق في اللّفظ فتكون مع وصف الكواكب والأزهار والأنعام وكلّ ما يمتّ إلى الجمال بصلة[٢٩].

وتعود دقّة الوصف إلى دِقّة الحسّ عند الشّاعر يقول د.أبو موسى في ذلك: "وكان البلاغيّون عندي في العناية بهذه النّاحية أعمق ما وراء دقّة الملاحظات المحسوسة، فليس الفضل راجعًا لما تناله الحواس وإنّما لما وراء ذلك ممّا تدركه العقول ويُحسّ به القلوب"[٣٠].

فوصف الأشياء أو الأصوات ذات الخصوصيّات الدّقيقة أكثر دلالة عندهم على براعة الشّاعر من الأصوات التي ليست كذلك فقول ذي الرّمّة:

كـأنّ على أنيابـه كـلّ مُنْقَـبٍ صِياحُ النّوازي من صَرِيف الوَلائِكِ[٣١]

---

[٢٨] أحمد الشايب، الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ص٩٠.

[٢٩] المرجع السّابق، ص٩٠.

[٣٠] محمد محمد أبو موسى،التصوير البياني(دراسة تحليلية لمسائل البيان)،ط٤،القاهرة،مكتبة وهبة،١٩٩٨م،ص٤٢٠.

[٣١] ديوان ذي الرّمّة غيلان بن عقبة العدوي،تحقيق:عبدالقدوس أبو صالح،ط٢،بيروت،مؤسّسة الإيمان،١٩٨٢م،ج٢،ص١٧١٩.
ويُريد أنّه يصف أصوات أنياب الإبل في حال مضغها فشبّهها بصياح النوازي، وهو وصف جيّد.

مفضّل على قول امرئ القيس:

كأنّ المصي من حقبها وأمامها إذا لحقته رمثه خلف أقمرا

كأنّ صليل السّرو حين تشدّه صليلُ زبوبٍ يتقدّن بعقسرا[٢٦]

وذلك لما في الوصف الأوّل من دقّة الحسّ[٢٧].

وشواهد هذا الوصف الدّقيق نزاعر به كتب الأدب ودواوين الشّعراء، فقد وصفوا كلّ شيء وقعت عليه أعينهم في الصّحراء حوفهم، وهم عادة يذكرون ذلك بعد غرضهم وتشبيههم، فيصفون رحلاتهم وقطّعهم للمفاوز البعيدة على رواحلهم التي لا يقصّرون في وصفها هي أيضًا، فما زلنا نذكر طرفة بن العبد ووصفه لناقته بعلّلته تلك التي كاد ألاّ يترك فيها عضوًا ولا جزءًا دون وصف وتصوير[٢٨].

ولعلّ ما أمدّه في المفضّليّات والأصمعيّات من أحاديث زاخرة عن الرّاحلة يدلّ على ما كانوا يرون فيها من جمال، "وكانوا يُشبّهونها بالقصور ويُشبّهون قوائمها بالأعمدة وقد يُشبّهونها بالسّفن والقناطر ويُشبّهون قوائمها بحذوع الطّلح وبدبها بالصّخر الغليظ أو بدي السّاباج، وصدوقا بصدور القصب وعنقها بالطّراق. وقد يُشبّهونها بالجبل ويُشبّهون صدرها بالطّريق، وكانوا يُشبّهونها بكثير من الحيوان مثل الظّليم والثّور وحمار الوحش، وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراك بينها وبين كلاب الصّيد"[٢٩].

---

(٢٦) ابن حجر بن عمر الكندي (شرح القيس)، ديوان امرئ القيس، ط. جديدة، بيروت، دار بيروت للطّباعة والنّشر، ١٩٧٢م، ص٩٤.

(٢٧) يصف في البيت الأوّل ورمها الحسي بدقّة رمثاء أعقابها على الأرض، فتشبهها برمي أقمر وهو الذي يرمي بالليل فلا يخيط (أي يوضع الشّاعد في البيت الثّاني إذ يصف صوت الحجارة (الزبوب) حين تحيد بوقاها الشّديدة والتي تقدح فيه النّار، بصوت الكمان الذي أتحدّث، وهو صوت ليس فيه من أصوات العيدان كما في سماع الموتاري. انظر في ذلك: عبد الله مرسي، التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان)، ص٨٥.

(٢٨) ينظر: عتيق، الشعر الجاهلي، ط١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٠م، ص٢١٤. (بتصرّف)

(٢٩) المرجع السّابق، ص٢١٤.

ثم يُعلّق على ذلك صاحب "العصر الجاهلي" بقوله:

"وكأنهم كانوا يتعمدون قتل الكلاب في المديح رمزًا لأعداء الممدوح، وكانوا فعلاً يُشبّهونهم بالكلاب"[٣٦].

كذا وصفوا الماء والخيل بكثرة، ووصفوا الضّباع والرّخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى، كما وصفوا الطّير وتشاءموا بالغراب. وطالما وصفوا وعورة الصّحراء ومخاوفها من الشياطين والجنّ، وأكثروا من وصف الخَبَب والقِحْف، والمطر، وما يتعلّق به من رعي ومراعي.... ولم يتركوا وصف الخمر وسُقاتها ومجالسها وتُرَّهاء، والقيان وأصواتها.... كلّ هذا كان يتداخل في قصيدة طويلة واحدة يتخلّلها بعض الحِكَم والمعاني التهذيبيّة.[٣٧]

وتعدّ الضّعالبك بوصف معاركهم ومغامراتهم حتّى حُمّة السّهام التي كانت معهم وكيف كانوا يحملون حُمَمًا صارمًا، بل سيوفًا قاطعة...إلخ[٣٨]

وهكذا ظلّ الوصف قُفْلاً أصيلاً على مدى العصور الأدبيّة، منذ العصر الجاهلي وحتّى وقتنا الحاضر، وكيف لا يكون مرتعًا للشعراء أو الأدباء بصفة خاصّة، وهو المرءاة الأمين الذي يلجأ إليه الأديب كلّما تحرّكت مشاعره تجاه شيء ما فأراد أن ينقل هذه المشاعر إلى كلّ من قرأ له أو سمع إنتاجه، وكيف لا وهو المتنفّس الذي يلجأ إليه كلّما تراكمت مشاعره وأحاسيسه وتكاثرت تجاه موقف أو شيء ما حرّك عاطفته فتحدّث عنه، فاستمع على سبيل المثال إلى قول الرّمّاني في قصّته "المكّاري والمكّاس" يصف الفجر:

"هي ساعة الفجر الوقف بين القمر والشّمس صفر اليدين، يستبشع نسورًا، ويُبشّر بنور، هي ساعة الفجر التي تتقدّم الحادث الذي حدث كلّ يوم منذ كانت

---

[٣٦] المرجع السّابق، ص٢١٨.

[٣٧] المرجع السّابق، ص٢١٥-٢١٦-٢١٧. (بتصرّف)

[٣٨] المرجع السّابق، ص٢٢٥. (بتصرّف)

الأرض، وظلّ حديثاً، في مثل هذه السّاعة البليمة الشريفة التي لا تعدّ من اللّيل ولا من النّهار يأصل فجر حياة الإنسان بفجر العالم، فيحتم إذا كان ناشئاً الأحلام القريبة من الحقيقة، ويُصوّر الحقيقة إذا كان مُستغيثاً، في أشكال تقرب من الأحلام، وفي مثل هذه السّاعة يفنى ويتجدّد جزء كبير من الجنس الإنساني.... ويكتب القدر والمهد اسميهما في سجل الله، ويفترقان بعد اجتماعهما. هي ساعة التحوّل والتعدد ساعة يقبل الموت الخيال، فيزكيها من القديم البالي، ومن الفاسد العظيم، وساعة أبي، الحياة بالجديد الطّاهر، السّليم النّشيط الجميل" [٢٩].

فالقص السّابق يخرج فيه الخيال بالواقع.. وتبدو الاستعارات والتشبيهات والكنايات فيه رقيقة أخّاذة فضلاً عن جمالها ورشاقتها... مُعبّرة عن مشاعر الأديب وتجربته الصّادقة واصفة للقدر بجماله وجلاله.

فالوصف فنّ يرقى بالأدب ويسمو بأسلوبه وماذته كما يُعدّ به بعناصر التأثير والقعود إلى النّفوس، ويصيغه بالصّبغة الفنّيّة وبالجمال الأخّاذ. [٣٠]

وبما أنّ الحديث عن هذا الفنّ قد تناولته كثير من كتب الأدب والنّقد فلن نكون الوقفة عنده أكثر من ذلك ويكفينا الضّحالة التي ذكّرنا فيها بأهمّيته وبمجاله وأقوال بعض النّقّاد فيه لنعد منها إلى ثورة البحث وهدفه الأوّل، وهي دور البيان القرآني في وصف الوجوه يوم القيامة.

ولدراسة هذا الجانب لابدّ لنا من توطئة نتضح فيها نقاطاً لا غنى عنها وهي الحديث ـ ولو بإيجاز ـ عن الوصف في القرآن وأهمّيته ثمّ الإشارة إلى الموضوعات التي احتوى بوصفها القرآن، ومدى تأثير ذلك الوصف على القارئ والسّامع لما تميّز به عن غيره من الأساليب.

---

(٢٩) عيسى النّاعوري، أدب المهجر، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص١٢٩.

(٣٠) الزمخ الشكلي، ص١٢٧، (بتصرّف).

الوصف في القرآن الكريم
(طرقه – أهدافه – موضوعاته – تأثيره – تميزه)

لعلّنا نصل إلى طرق الوصف في القرآن من القرآن نفسه، فليس أدلّ على ذلك من دلالة الآيات التي ورد فيها الوصف، ومنها أيضًا نعرف موضوعاته، وتأثيره في النفس، وما تميّز به عن غيره من وصف في كتب الأدب، وكيف لا يكون مُختلفًا ومُتميزًا على أقوال البشر وهو من خالقهم –عزّ وجلّ– فالكامل المُنفرِّد بخلائقه وعظمته لا يأتي إلاّ بكامل منفرِّد مثله.

وإذا حاولنا الاستعانة ببعض المصادر والمراجع التي تحدّثت عن هذا الجانب فإنها هي الأخرى جعلت الآيات الكريمات أساسًا لأيّ ملحوظة كُتبت عن ذلك... وهذا هو الصّواب بعينه فمن ذا الذي يجرؤ أن يكتب عن القرآن الكريم شيئًا دون أن يلجأ إلى دليله وشاهده من القرآن نفسه؟!

ولكن البحث هنا يدعو إلى أن نُقرِّر نقطة مهمّة في هذا الجانب، وهي إنّ الوصف في القرآن غالبًا ما يعتمد على التشبيه، ونقصد بذلك أيّ نوع كان من أنواع التشبيه..! وذلك لتقريب المعنى أو الشيء المقصود إلى ذهن السّامع وفهمه، وقد لا يعتمد على التشبيه –أحيانًا– ما دام الوصف مُدركًا بدونه. ولتوضيح هذا الذي قُرِّر لابدّ لنا أن نُعرِّج –للتذكير فقط– على فنّ التشبيه وخدمته لنقل المعاني في القرآن الكريم ولتوضيحها، فالمعلوم أنّ التشبيه فنّ من فنون الكلام، وعنصر من عناصر الأسلوب الجميل، يرسم صورة للحسّ والشعور، فينقل المعنى في وضوح ودقّة وكأنّه ماثل أمامنا [٣١].

---

(٣١) عبدالقادر حسين، القرآن والصورة البيانية، ط بدون، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٥م، ص٩. (بتصرف)

وفي تعريفه الاصطلاحي ذكر البلاغيون أنه إلحاق أمر بأمر في معنى [٣٣].

ويشترك التشبيه مع عناصر أخرى في الأسلوب القرآني ليظل لنا المعنى في صورة فنية تُعبِّر عن المعنى المُجرَّد بشكل حسّيّ، كما أنها تنقل الحالة النفسية في أسلوب جذّاب دقيق.

يقول صاحب التصوير الفني في القرآن موضّحًا ما يعنيه من التصوير في القرآن: "ويجب أن نتوسّع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفنّي في القرآن. فهو تصوير باللّون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وكثيرًا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السِّياق، في إبراز صورة من الصُّور تتملأها العين والأذن، والحسّ والخيال والفكر والوجدان" [٣٤].

ثمّ يُؤكّد أنّ هذا التصوير مأخوذ من عالم الأحياء وليس بعيدًا عن المشاعر والأحاسيس أو الأبعاد والمسافات بل هو مقترن بالنفس والوجدان، متفاعل مع الطّبيعة ومشاهدها، ناقل لكلّ محتوياتها ومشاهدها. [٣٥]

وممّا يدلّ على أنّ القرآن في تشبيهه لا يكتفي بالحسّ فقط ليجمع بين المشبّه والمشبّه به، وإنّما الحسّ والنفس معًا، بل إنّ للنفس أكبر الحظّ والنصيب، قوله تعالى عن سفينة نوح عليه السّلام: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

فالآية الكريمة صوّرت لك بقوله: ﴿كَالْجِبَالِ﴾ علوّ الموج وضخامته فضلاً عن الرّهبة والفزع الذي استقرّ في نفوس الناظرين إلى ذلك الموج. [٣٦]

---

(٣٣) عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، **التلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع**، ط الأخيرة، القاهرة، شركة ومكتبة مصطفى الحلبي وشركاه، د ت، ص٢٢٤. (بتصرف)

(٣٤) سيّد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ط٨، القاهرة، دار الشروق، جوان تاريخ، ص٣٠.

(٣٥) المرجع السّابق، ص٣٠. (بتصرف)

(٣٦) سورة هود، الآية ٤٢.

(٣٧) أحمد أحمد بدوي، **من بلاغة القرآن**، ط بدون، القاهرة، دار نهضة مصر للطّباعة والنشر، ١٩٧٠م، ص١٩٩. (بتصرف)

كما قوله تعالى: [٣٩] ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

فانظر إلى هذا التشبيه ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ كيف نقل لك منظر القمر الذي كان نجمة السّماء وملك اللّيل بسطوعه الجميل لليد للظّلماء، انظر كيف يُصبح بعد هذا كلّه، دقيقًا مُحدودبًا لا تكاد تراه بل كأنّه كوكب تائه في السّماء لا أهمّيّة له ولا عناية بأمره ألم تر لا ترى في كلمة العرجون ووصفها بالقديم ما يُصوّر لك حيرة الضلال في آخر الشّهر وانحلال إلى نفسك ضآلة أمره معًا؟ [٤٠]

وقد يأتي الوصف بطريقة التّشبيه التّمثيلي[٤١] الذي ينقل المعنى المعقول بصورة محسوسة، فتراه العين مُشاهدًا شاخصًا أمامها[٤٢]، فانظر إلى الآية التي ضرب لها القول ـعزّ وجلّـ مثلاً لنوره ـسبحانه ـ:[٤٣] ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾، فنور الله هنا قصد به هداية الله ـعزّ وجلّـ؛ إذ مثّل ـعزّ وجلّـ نور هدايته وما فيه من إدراك لحقائق الأمور وبُعد عن الضلال والمفاسد مع توجّه إلى الله ـعزّ وجلّـ بكلّ ما في النّفس من مشاعر وإخلاص، وكلّ ما تقوم به الجوارح من أفعال، شبّه هذا

---

[٣٩] سورة يس الآية ٣٩.

[٤٠] أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص١٩٢. (بتصرّف)

[٤١] التّشبيه التّمثيلي: ما يكون فيه المشبه صورة مصورة أو ما كان وجه الشّبه فيه أمرًا منتزعًا من عدّة أشياء.
انظر: محمّد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمّد عبدالمنعم خفاجي، ط٥، بيروت، دار الكتاب اللّبناني، ١٩٧٨م، ص٣٤٥-٣٤٦.

[٤٢] إبراهيم عبد الجليل، من بلاغة القرآن، ط بيروت الشّام، مكتبة الأقصى، عمّان الأردن، ص١١٨.

[٤٣] سورة النور الآية ٣٥.

النور بنور المصباح الذي يهدي من يستضيء به فلا يضلّ طريقه ولا يتعثّر بما يُواجهه من حفرات الطّريق وأشواكه.

يقول صاحب البيان القرآني: "إذ اختير النور مثلاً للهداية المؤمنة، كما اختيرت الظّلمة مثلاً للضّلال الكافر، وفي شعاع النور الوضيء يسير العقل المُهتدي أمنًا مُستبشرًا، وفي ظلام الكفر يتخبّط العقل الضّال حائرًا تائهًا!" [15]

وقد لا يلجأ القرآن إلى أكثر من التشبيه المُفرد، فاستمع إلى قوله تعالى: [16] ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ ﴾ [17]، "فالجبال هنا تصير غُبارًا دقيقًا لا تماسك فيه بعدما كانت صخورًا صلبة متماسكة" [18].

والملاحظ أنّ التشبيه السّابق نقل لنا شيئًا حسيًّا بآخر مثله تساهم حاسّة البصر في إدراكه.

أمّا قوله تعالى: [19] ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾، فالتشبيه فيها وهميٌّ يعتمد على العقل في فهمه، "وما تراكم على الخيال بمرور الزّمن من أوهام رسخت في النّفس رؤوس الشّياطين في هيئة مرعبة، وأحدثت هذه الصّورة بمثلث رسوخها بمرور الزّمن، وبقوى فعلها في النّفس، حتّى كأنّها محسوسة تُرى بالعين وتُلمس باليد" [20]، وأصبح لها من القوّة والتّأثير في النّفس ما جعلها مُستخدمة للتّوضيح والتّصوير.

---

(15) عائشة رجب النّمري، البيان القرآني، ط1، القاهرة، الدّار المصريّة اللّبنانيّة، 1411هـ/1991م، ص70.

(16) سورة الواقعة الآيتان 5-6.

(17) هبا: الغبار يظهر كالذر وينطفئ، والمعنى جعلناه مثل الغبار وما لبث في الهواء فلا يراه إلّا الذي يدقق في النظر. انظر: أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، ط بدون، بيروت، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بدون تاريخ، (هبا).

(18) إبراهيم بك الخطيب، من بلاغة القرآن، ص111.

(19) سورة الصّافّات الآيتان 64-65.

(20) أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص193.

وقد لا يلحظ الوصف في الأسلوب القرآني إلى التشبيه المباشر كما سبق، وإنما يُلمح من خلال السياق تلمّحاً. ولنتأمّل قوله تعالى: [٤٩] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ ، فهذه العادة غير المخلصة وغير المتمسّكة من السكس إن أصاب صاحبها مكروه فهو شبيه بمن يقف على شفا حفرة يكاد يهوي فيها، أو على طرف مكانٍ عالٍ ربّما تنزلق فيه قدماه فلا يكاد ينجو...

يقول سيّد قطب في ذلك:

"إنّ الخيال ليكاد يُجسّم هذا (الحرف) الذي يحيد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنّه ليكاد يتمثّل الاضطراب الحسّي في وقفتهم، وهم يترجحون بين الثبات والانقلاب! وإنّ هذه الصّورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤدّيه وصف التزعزع، لأنها تنطق في الحسّ وتتصل منه بالنفس" [٥٠].

ويلحظ الوصف القرآني إلى طريقة ليس التشبيه فيها عنصراً من العناصر ولكنها دقيقة مُعبّرة مؤدّية للغرض في أبلغ أسلوب وأجمله... هذا قوله تعالى: [٥١] ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ، وهو أنموذج إنسانٍ مُتكرّر كثيراً، له آثاره السيّئة على نفسه بظلمها وعلى المجتمع بفساده.

---

[٤٩] سورة الحج الآية ١١.

[٥٠] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٤٦.

[٥١] سورة البقرة الآيات ٢٠٤-٢٠٥.

ومثال آخر للوصف في القرآن هو زبدة الختام في هذا المقال، إذ إنّ القرآن كلّه لا يخلو من هذه الأساليب المُميّزة في العرض أو الوصف أو القصص أو الحوار...إلخ.

قال تعالى: [٣٥] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، فالآية الكريمة غنيّة عن بيان ما في سياقها من وصف دقيق لهجوم الأعداء على المؤمنين من كلّ مكان، ووصف حالة الفزع والرّهبة التي انتابت هؤلاء المقاتلين من المؤمنين، ووصف حالة القلّة وعدم الثّبات التي كان فيها المنافقون...إلخ، فهي حافلة بكلّ ما يُساعد على وصف الحركات والسّكنات في المشاهد المختلفة في تلك المعركة، فضلاً عن وصفها للمشاعر ورسمها للأحاسيس رسمًا يجعلك معهم في قلب الحدث وساحته. [٣٦]

تلك هي طرق القرآن في وصفه، وهو في هذا الوصف، نجده يهتمّ بإبراز الجثة وتعيبها والتأثر وتحبيبها، وبأبى هذه الأوصاف مستقيمة مع طباع النّاس ومكافأة لما يستحقونه من مثوبة أو عقوبة [٣٧]. قال تعالى: [٣٨] ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ

---

[٣٥] سورة الأحزاب الآيات من ٩-١٣.

[٣٦] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص٤٦. (بتصرّف)

[٣٧] عبّاس العزاوي، نظرات في القرآن، ط٥، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ص٩٨. (بتصرّف)

[٣٨] سورة الواقعة الآيات من ٨٨-٩٦.

ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقد تكون هذه الموصوفات غير معهودة من قبل[٣٩] ولكنّ النفس تسعد بها وتتوق لها.

كذا اهتمّ القرآن بوصف الطّبيعة ومشاهدها ومسموعاتها ومشاعر المتأمّلين من المؤمنين إزاءها ما يُحرّك وجدانهم منها، ويستحثّ عقولهم على التفكّر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ومن الموصوفات التي اهتمّ بها القرآن، النفوس البشريّة وما انطوت عليه من صفات حسنة أو سيّئة[٤٠]، كذا وصف الأعلاق والطّباع البشريّة[٤١]، والمعاملات والمواقف المختلفة[٤٢]، وتأخذ على سبيل المثال وصفه للمنافقين وتصرّفاتهم في سورة كاملة نذكر منها قوله تعالى: [٤٣]﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً

---

[٣٩] عبّاس محمود العقّاد، الفلسفة القرآنيّة، ط بدون، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٤٧م، ص١٥٧. (بتصرّف)

[٤٠] سورة آل عمران الآيات ١٩٠-١٩١.

[٤١] انظر: سورة القيامة الآية ٢، وسورة العصر الآية ٣.

[٤٢] انظر: سورة البقرة الآية ٩٩، وسورة آل عمران الآيات ١١٣-١١٤، وسورة الحشر الآية ٩، وسورة المدّثر الآيات ١٥-١٦، وسورة الإنسان الآية ٣.

[٤٣] انظر سورة المجادلة الآية ٢٢.

[٤٤] سورة المنافقون الآيات من ١-٢.

فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝ ● وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ..﴾.

كنا استوجب وصف يوم القيامة وأهواله عددًا كبيرًا من آيات القرآن الكريم في سور مُتعدِّدة [٢٦]، وتبع ذلك وصف الوجوه تبعًا لأعمال أصحابها في دنياهم والذي سيقوم البحث ـ في صفحاته التالية ـ بدراسة معظم آياته وتحليلها بيانًا لإبراز مدى تميّز الأسلوب القرآني في توضيح المعاني التي أرادها السِّياق الكريم للقارئ في قارئه فضلاً عن بلاغة التركيب ودقّة اللّفظ وفصاحته في السّياق.

من بيان القرآن في وصف الوجوه يوم القيامة

عند قراءة الآيات الواردة في وصف الوجوه يوم القيامة يتبيّن لنا أنها اهتمّت بوصف وجوه فئتين من البشر ـ حسب أعمالهم في الدّنيا ـ وهاتان الفئتان هما: فئة المؤمنين أو المحسنين، وفئة الكافرين أو المجرمين.

وتعريف الوجه في اللّغة: هو المستقبل لكلّ شيء لأنّ "الواو والجيم والهاء: أصل واحد يدلُّ على مقابلة الشيء" [٢٧]، وربّما عبّر عن الذّات بالوجه فيُقال

---

(٢٦) انظر سورة البقرة الآية ٤٨ والآية ٢٥٤ وسورة آل عمران الآية ١٠٦ وسورة القصص الآيات ٧٤-٧٥، وسورة الحكم الآيات من ٦-١٤، وسورة الحاقة الآيات من ١٠-١١، وسورة الفجر الآيات حتى ٢١-٢٣، وسورة الزلزلة الآيات من ١-٨، وسورة العاديات الآيات من ٩-١١، وسورة القارعة الآيات حتى ١-١١، وغيرها من السّور الكريم.

(٢٧) أبو الحسن أحمد بن زكريا ابن فارس، **معجم مقاييس اللّغة**، مادة (وجه).

وجهي إليك، أي ذاتي وكلّي، والوجهة كلّ موضع استقبلته، أمّا قولك وجّهت الشيء، أي حملته على جهة [٢٣].

دراسة الآيات وتحليلها

الموضع الأول:

أ ـ قال تعالى: [٢٤] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

ب ـ المعنى العام:

جاء في معنى الآية الكريمة أقوال مختلفة، فقيل إنّ اليوم هو يوم القيامة[٢٥]، وقيل: "وقت قراءة الصّحف، أو وقت رجحان الحسنات والسّيّئات في الميزان، وقيل عند قوله: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ، وقيل وقت أن يؤمر كلّ فريق بأن يتبع معبوده" [٢٦].

أمّا عن المعنيّين ببياض الوجوه فقد ذُكر "من عطاء تبيضُّ وجوه المهاجرين والأبصار وتسودُّ وجوه بني قُرَيظة والنّضير" [٢٧].

---

(٢٣) الجصاص الشافعي، مادة (وجه). (بتصرف)

(٢٤) سورة آل عمران الآيات ١٠٦-١٠٧.

(٢٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط٣، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٨م، ج٤، ص٤٠. (بتصرف)

(٢٦) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، تفسير البحر المحيط، ط٢، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٣م، ج٢، ص٢٦.

(٢٧) محمد بن محمد أبو السّعود العمادي، تفسير أبو السّعود وروحه المعلّل المسمّى إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ط بدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ، ج٢، ص٦٩.

وقيل: "إنّ من كان من أهل نور الحقّ وُسِمَ ببياض الثّوب وإسفاره وإشراقه، وابيضّت صحيفته وأشرقت، وسعى النّور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسِمَ بسواد الثّوب وكسوفه وكمده، واسْوَدّت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظّلمة من كلّ جانب" [٢٨].

أمّا كفرهم بعد الإيمان فيقصد به أهل الكتاب وتكذيبهم برسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه، وقيل هم المرتدّون، وقيل هم أهل البدع والأهواء، وعن أبي أمامة هم الخوارج، وقيل هم جميع الكُفّار لإعراضهم بعد أن شهدوا على أنفسهم حين سألهم الربّ ـ عزّ وجلّ ـ: ألست بربّكم؟ فقالوا: بلى. [٢٩]

وهكذا يكون تأويل الآية، أنّ جميع الكفّار يكون لهم عذاب عظيم يوم تبيضُّ وجوه قوم وتسودُّ وجوه قوم آخرين، فيُقال للذين اسودّت وجوههم أكفرتم بتوحيد الله وميثاقكم الذي واثقتموه عليه بأن لا تُشركوا به شيئًا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٣٠]، أي "بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتّصديق" [٣١].

وأمّا الذين ابيضّت وجوههم بسبب ثبوتهم على ميثاقهم، ولم يُبدّلوا دينهم، فهم في رحمة الله أي في جنّته ونعيمها وما أعدّ الله لهم فيها من نعيم دائم خالدين فيها. [٣٢]

---

[٢٨] أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشري الخوارزمي، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق محمد الصّادق قمحاوي، ط الأميرية، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٢م، ج١، ص٤٥٣.

[٢٩] المصدر السّابق، ص٤٥٤. (بتصرّف)

[٣٠] سورة آل عمران الآية ١٠٦.

[٣١] أبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٤، ص٩٦.

[٣٢] المصدر السّابق، ص٤١. (بتصرّف)

ج- مناسبة الآية للسّياق الكريم:

تبدو مناسبة الآيتين للسّياق الكريم فيها عندما طُلب من المؤمنين ألاّ يُطيعوا فريقًا من أهل الكتاب حتّى لا يرتدُّوا عن دينهم، لاسيّما وأنهم يتنـزل على رسولهم القرآن الكريم وهو بينهم ـ ﷺ ـ يدلّهم على معالمه ويهديهم إلى كلّ خير فيه، بل ويطلب منهم الالتزام بالتّقوى كما ينبغي، وأن يظلّوا على إسلامهم إلى أن يتوفّاهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وأن يتمسّكوا بحبل الله المتين وهو القرآن الكريم، أو دينهم الذي ارتضى لهم ـ سبحانه ـ والذي كان سببًا في تأليف قلوبهم وجمعهم على الحقّ بعد أن كانوا أعداءً، وبعد أن منّ الله عليهم بالنّجاة من النّار... كما يأمرهم أن يكون منهم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، حتّى يكونوا مُفلحين حقًا ولا يكونوا كالذين تفرّقوا وأصبحوا فرقًا وهم اليهود والنّصارى، بعد أن جاءهم البيّنات فحلّ عليهم العذاب العظيم، وهنا تأتي مناسبة الآيتين الكريمتين للسّياق، إذ إنّ هذا العذاب سيكون في اليوم الذي سيفرح الثّابتين على الحقّ والإيمان ثابتي، فتبيضُّ وجوههم إشراقًا وبشرًا بما فعلوا، وتسودُّ وجوهُ أخرى كفرت بعد إيمانها فحلّ عليها العذاب، ويُقال لهم: ﴿ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، وأمّا الذين ابيضّت وجوههم فهم في نعيم من الله ورحمة دائمة. [٣٣]

أمّا مناسبة الآيتين للسّياق بعدهما فيبدو في الإشارة إلى الآيات التي بيّنت وقرّرت نعيم الأبرار وتعذيب الكُفّار، والتي أكّدت عدل المولى ـ عزّ وجلّ ـ وعدم ظُلمه؛ فهو وحده الذي له ملكوت السّموات والأرض وإليه تُرجع الأمور، إذ ليس لأحد حقّ التّصرّف في هذا الكون سواه ـ سبحانه وتعالى ـ [٣٤].

---

(٣٣) انظر: سورة آل عمران، من الآية ١٠٠-١٠٧.

(٣٤) انظر: سورة آل عمران، من الآية ١٠٨-١٠٩.

د- دراسة الألفاظ والتراكيب:

لنعد هنا إلى سياق الآيتين الكريمتين: [٣٧] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

فالملاحظ أنّ الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ ﴾ إذ جاء اللفظ (يوم) منصوبًا لأنه ظرف زمان مُتعلّق بالخبر المحذوف للعذاب في الآية السّابقة[٣٨]، وهي قوله تعالى: [٣٩] ﴿ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، وتقديره (يُستقرّ) أو منصوب لأنه "مفعول لمُضمر عوضه به المؤمنون تخبيرًا لهم من عاقبة التفريق بعد مجيء البيّنات، وترغيبًا في الاتفاق على التمسّك بالدّين أي اذكروا يوم تبيض"[٤٠].

أمّا قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، فالبياض إمّا على الحقيقة، أي بياض البشرة أو سوادها، كما قال ابن عطيّة: "وبياض الوجوه عبارة عن إشراقها واستبشارها وبشرها برحمة الله"[٤١].

وقيل يحتمل أن تكون من آثار الوضوء إذ سُئل ﷺ : كيف تعرف مَن لم ترَ من أمّتك؟ قال: "غرٌّ مُحجّلون، بُلقٌ من آثار الوضوء"[٤٢].

---

[٣٧] سورة آل عمران الآيات ١٠٦-١٠٧.

[٣٨] انظر: صافي، **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، ط مزيدة ومنقحة، (د.م: دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ج٤، ص٢٦٩. (بتصرف)

[٣٩] سورة آل عمران الآية ١٠٥.

[٤٠] عبد بن حميد أبي المكارم، **تفسير أبي المكارم**، ج٢، ص٦٩.

[٤١] أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٣، ص٢٠٠.

[٤٢] (وغرّ: ج أغرّ: من الغرة: بياض الوجه. والمحجّل: اسم مفعول حجله (المحجّل) من التحجيل وهو البياض الذي هاهنا فوائم بعض، والغرة: ظهور النور في أعضاء الوضوء. (بُلق): جمع أبلق، وهو من الفرس ذو سواد وبياض. انظر: الطيبي،الحسين بن محمد أبو عبدالله محمد بن عبد الغربي، **معين الدين ماجد الطيبي: محمد فؤاد عبدالباقي**، ط مزيدة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٢م، ج١، ص١٠٦. كتاب الطّهارة وسننها.

وأمّا سواد الوجوه فقيل: "هو عبارة عن ارتدادها وإظلامها بضم العذاب، ويُحتمل أن يكون ذلك تسويدًا يُنسبه الله هم على جهة التشويه والتمثيل هم على نحو حشرهم زرقًا وهذه أقبح طلعة" [٥٦].

وخصّ الوجوه بالذكر عن سائر البدن لأنّ الوجه هو أوّل ما يلقاك من الشخص، وهو أشرف ما في الإنسان وأكرمه، وإن كان السّواد والبياض عام لجميع البدن. [٥٧]

وفي (تَبْيَضّ) و (تسودّ) قراءتان غير المذكورة وهي (تَبْيَضّ ، تَسْوَدّ) بكسر التاء والأخرى (تَبياض ، تَسواد)، ويجوز كسر التاء أيضًا، ويجوز (يوم يبْيَضّ وجوه) على تذكر الجمع، ويجوز (أحوه) مثل (أقْتت) [٥٨].

وأرى ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بالبياض هنا هو كناية[٥٩] عن العمل الصّالح وما يلزم صاحبه من الطّلاقة والبشر الدّائمين في حياته وعند حسابه، أمّا السّواد فهو كناية عن العمل السّيّئ وما يلزم صاحبه من الكآبة والحزن في حياته وعند حسابه...

أمّا قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ... ﴾ فهو تفصيل لما أجمل ـ قبل ذلك ـ في قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ ، أو هي إيضاح بعد إبهام[٦٠]

---

[٥٥] محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٣، ص٢١.

[٥٦] أبو الفضل شهاب الدّين السيّد محمود الألوسي البغدادي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، د. بدون، بيروت، ١٩٨٣م، ج٤، ص٢٥. (باختصار)

[٥٧] أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن**، د. بدون، القاهرة، (د.ت)، بدون تاريخ، ج٣، ص١٠٩-١١٠.

[٥٨] الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي. انظر: الصّعيدي، عبدالمتعال الصّعيدي، **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، ط١٧، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٥م، ج٣، ص٣٢٨.

[٥٩] الإيضاح بعد الإبهام من طرق الإطناب وهو باب واسع في علم البلاغة، وهو نمي زيادة الكشف على المعنى لفائدة وله طرق متعدّدة منها الإيضاح بعد الإبهام. انظر: محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ص٣٠٦.

والآيتان مشتملتان على لفّ ونشر، ففي قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ لفّ، أمّا قوله:﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ... ﴾ فهو نشر غير مرتّب[٢٨]. ويُلاحظ تقديم بياض الوجوه في الآية الأولى في قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ... ﴾ وذلك ليكون افتتاح الآية بما لما للنعيم الضائع من فضل، ولما لصاحبه من مكانة مفضّلة وقيل: "قُدّم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم تشريفًا لذلك اليوم بأنّه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأنّ رحمة الله سبقت غضبه، ولأنّ في ذكر حمة أهل النعيم، عقب وعيد غيرهم بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السّامع أنّ لهم عذابًا عظيمًا في يوم نعيم عظيم، ثمّ قُدّم في التّفصيل ذكر حمة أهل العذاب تعجيلاً بمسائهم" [٢٩]، وقيل قُدّم الحديث عنهم لمجاورته القول : ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[٣٠].

أمّا قوله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فهو على إرادة محذوف تقديره (فيُقال لهم)، فحُذفت الفاء الواقعة في جواب (أمّا) مع ما بعدها، والاستفهام خرج إلى معنى بلاغي هو التّقرير والتّوبيخ والتّعجّب[٣١]، والجملة اشتملت على فصل واجب لشبه كمال الاتّصال[٣٢].

---

[٢٨] اللّفّ والنّشر: مبحث من مباحث علم البديع، ويُسمّى أيضًا الطّيّ والنّشر، وهو أن يذكر متعلّقَ لم يذكر ما لكلّ من أفراده غاشيًا من غير تعيين، اعتمادًا على تصرّف السّامع وفهمه، وهو إمّا أن يكون النّشر على ترتيب أو على غير ترتيب، كما هو في الآية الكريمة. انظر: بدوي طبانة، **معجم البلاغة العربية**، ط٣، جدّة، دار إغارة للنّشر، (الرّياض، دار الرّفاعي للنّشر، ١٩٨٥، ص٣٩٦.

[٢٩] محمد الطّاهر بن عاشور، **تفسير التّحرير والتّنوير**، ط١، (تونس، دار سحنون للنّشر والتّوزيع، ج٤، ص٤٤-٤٥.

[٣٠] أبو الفضل شهاب الدّين محمد الآلوسي، **روح المعاني**، ج٤، ص٢٥.

[٣١] القصّار السّكاني، ج٤، ص٢٤٠.

[٣٢] من مواضع الفصل أن تكون الجملة الثّانية إجابة على سؤال فهم من الجملة الأولى، وتقديره هنا: فالسّائل حدث نفسه فكانت إجابته: فيُقال لهم: أكفرتم...؟. انظر: فضل حسن عبّاس، **البلاغة فنونها وأفنانها**، ط١، الأردن، ١٩٩٥م، ج١ (علم المعاني)، ص٣١٧. (بتصرّف)

وهكذا تكون الجملتان: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ متلازمتان على إضمار حذف أيضاً، والمحذوف جملتان وهما: فمالنا يكون لي شأنهم؟ فيُقال لهم: أكفرتم... ـ على التوالي ـ ولا أجعل من هذا الحذف وأبلغه في سياق القرآن، لأنه لا يُعطي النظم إلاّ بلاغة كاملة ونسقًا فريدًا، لا يتوفّر إلاّ في أسلوب القرآن الكريم، ثم انظر إلى السؤال في الآية الكريمة: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ ؟ ثم تذكّر مصدره وقائله ـ عزّ وجلّ ـ لتعرف أنّ هذه الجملة اشتملت على أسلوب بديع أيضاً وهو تجاهل العارف [٢١]، كذا اشتملت على التفات[٢٢].

أمّا قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ففيه استعارة تبعيّة[٢٣]، فكأنّما العذاب طعام يُذاق، وهو أبلغ مما لو قيل (تلقوا العذاب)، ويُلاحظ أيضاً هنا، فعل الأمر (ذوقوا) للإهانة والقهر المأمور به وأخلقه وقيل يُحتمل أن يكون أمر تسخير بأن يذوق العذاب كلّ شعرة من أعضائهم»[٢٤].

أمّا (الفاء) فتدلّ على الإيذان بأنّ الأمر بذوق العذاب مترتب على كفرهم المذكور، أمّا قوله (العذاب) فسؤال) هنا للعهد أي ذلك العذاب المعهود والموصوف بالعظيم.

---

[٢١] تجاهل العارف: من مباحث علم البديع وهو أن تسأل عن شيء مع إيهامك تناسي أنك لا تعلمه (زيد٤٨ في البلاغة، انظر: السيوطي عبدالفتاح فيود، علم البديع دراسة فريدة وفقه لأصول البلاغة ومسائل البديع، ط١، القاهرة، مؤسسة المختار، دار الصالح للتراث، الأحساء، ١٩٩٨م، ص٢٢٩. (بتصرف)

[٢٢] الالتفات: بحث بلاغي جميل، وفيه يعتبر الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة أو العكس، كما قد تعتبر الأفعال من الماضي إلى المضارع أو الأمر إلى أحدهما للون الأسلوب. انظر: السيوطي عبدالفتاح فيود، علم المعاني دراسة بلاغية وفنية لمسائل المعاني، ط٢، القاهرة، مؤسسة المختار، دار الصالح للتراث، الأحساء، ١٩٩٨م، ص٢٣١. (بتصرف)

[٢٣] الاستعارة: لفظ مستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب، وتكون أصليّة في أسماء الجنس وأسماء الأجناس وأسماء الأعلام الشخصيّة، وتبعيّة في الأفعال والمشتقات والحروف. انظر: فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان)، ط١، الأردن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م، ص١٨٦. (بتصرف)

[٢٤] أبو الفضل شهاب الدين محمد الآلوسي، روح المعاني، ج١، ص٢٦.

ثمّ بأن قوله تعالى: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ويُلاحظ هنا بداية الجملة بـ(الباء) التي تدلّ على سبب وقوع الحدث[٢٧]، وقيل: "للمقابلة من غير نظر إلى السّبب"[٢٨]، و(ما) في قوله (بما) مصدريّة[٢٩].

ثمّ جاء قوله: [٣٠]﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، فكما ذُكر ـ من قبل ـ هو نشر على غير ترتيب لأنّه أُريد ـ والله اعلم ـ اختتام الآية بالحديث عن الذين ابيضّت وجوههم كما بدأ الحديث عن الوجوه البيضاء، كذا يلاحظ الفرق بين الحديث عن الفئة الكافرة ـ وكيف ارتبط الإخبار عنها بالعذاب وسوء الحال ـ والحديث عن الفئة المؤمنة التي استقرّ أمرها في رحمة الله دون أسباب، يقول أبو حيّان في ذلك: "انظر تفاوت ما بين القسمين هناك جمع لمن اسودّت وجوههم بين التعنيف بالقول والعذاب، وهنا جعلهم مستقرّين في الرّحمة فالرّحمة ظرف لهم وهي شاملتهم"[٣١].

ويُلاحظ إضافة لفظ الرّحمة إلى لفظ الجلالة (الله) لأنّها من شأنه ـ عزّ وجلّ ـ بينما جاء لفظ العذاب مُعلّلاً بفعلهم، أمّا الرّحمة فليس منصوصًا في السّياق الكريم على سببها، ثمّ جاءت جملة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ بتقديم المُسند إليه (هم) لتأكيد أنّ هذا الخلود لهم دون سواهم، فيحصل هذا التّأكيد تشويق إليه، وفي توسّط الجار والمجرور بينهما تخصيص يدلّ على أنّ هذا الخلود في الجنّة دون سواها.[٣٢]

---

[٢٧] محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٢، ص٩٦.

[٢٨] أبو الفضل شهاب الدين محمد الآلوسي، روح المعاني، ج٤، ص٢٩.

[٢٩] محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٢، ص٩٦.

[٣٠] سورة آل عمران الآية ١٠٧.

[٣١] محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٢، ص٣٦.

[٣٢] قد يقدّم الجار والمجرور على العامل للتخصيص، انظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ط٣، بيروت، ١٩٩٠م، دار العلم للملايين، ج١، ص١٢٦.

أمّا الجملة كلّها فهي استئناف الإجابة عن سؤال مُقدّر فكأنّه قيل: كيف حالهم فيها؟... فأتى الإجابة ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، وعلى هذا التقدير يكون في قوله: [آل عمران: ١٠٧] ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فصل واجب لشبه كمال الاتصال بين جملتَيْ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وبين جملتَيْ ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

ثمّ تأمّل هذا السّكون النّفسي الذي أحدثته الآية على قارئها أو سامعها عند الفاصلة (خالدون)، وكيف أعطت الإحساس بالقدوء والأمن الذي يشعر به من أراد الله ربّه أن يسكن في رحمة الله خالدًا !!

وهكذا وضعت لنا الآيتان الكريمتان الخطوط الواضحة في وصف وجه من آمن وصدّق وثبت على إيمانه، كذا وصف وجه من كفر وكذّب وارتدّ عن الإيمان... وفي هذا فضل كبير من المولى ـعزّ وجلّـ إذ شوّقنا ـسبحانهـ إلى حُسن المآل الذي ينبغي أن يسعى إليه كلّ مؤمن بهذا الوصف الموحد والمنهج في آن واحد. كما أنّه عن طريق المقابلة[٢٠١] في الأسلوب بين الآيتين: [آل عمران: ١٠٦] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ..... هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ، غرس في نفس السّامع رهبة من سوء العاقبة التي يُمكن أن يصل إليها كلّ من ابتعد عن الطّريق المستقيم أو ارتدّ عن دينه ـوالعياذ بالله.

---

(٢٠٠) سورة آل عمران الآية ١٠٧.

(٢٠١) المقابلة: مبحث من مباحث علم البديع، وهي إيراد الكلام أو مقابلته بمثله في المعنى إتيانًا بالأضداد كما مر في الآيتين المذكورتين، أو بالموافق وهو ما ليس من مراعاة النظير. انظر: بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البديع)، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩١م، ص٨٠.

(٢٠٢) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦-١٠٧.

الموضع الثاني:

أ- قال تعالى: (٢٠٥) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الدّراسة والتحليل

ب- المعنى العام:

جاء في تفسير هذه الآية أنّ من أحسن في عبادة الله -عزّ وجلّ- في الدّنيا من عقله وأطاعوه في اتباع أوامره واجتناب نواهيه، الحُسنى أي الجنّة، أمّا الزّيادة فهي النّظر إلى وجه الرّحمن -عزّ وجلّ-.(٢٠٦)

وذكر ابن كثير أنّ الزّيادة هي تضعيف ثواب الأعمال الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضًا وبشمل ذلك كلّ ما يعطيهم الله -عزّ وجلّ- في الجنان من القصور والحور والرّضا عنهم، وما أعطاه لهم من قرّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النّظر إلى وجهه الكريم، فهي زيادة أعظم من كلّ ما أعطوه، لا يستحقّوها بعملهم بل بفضله ورحمته، "وقد روي تفسير الزيادة بالنّظر إلى وجهه الكريم: عن أبي بكر الصّدّيق وحُذيفة بن اليمان وعبدالله بن عبّاس وسعيد بن المسيّب وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة

---

(٢٠٥) سورة يونس الآيات ٢٦-٢٧.

(٢٠٦) أبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١١، ص١٠١-١٠٢. (بتصرّف)

وعامر بن سعد وعطاء والضحّاك والحسن وقتادة والسدّي ومحمّد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف" [٢٠٥].

وذكر الشوكاني في تفسيره -إضافة إلى ما ذُكر- أنّ المقصود بالزيادة أيضًا "غرفة من لؤلؤ. وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل هي أنّه يُعطيهم في الدّنيا من فضله ما لا يُجاسمهم عليه" [٢٠٦]، ثمّ أعطيا الآية الكريمة صفات حقيقيّة يتمتّع بها هؤلاء المحسنين، وهي صفاء وجوههم وعدم غشاوتها بالغبار أو السّواد الذي يدلّ على الهوان أو الحزن في ذلك اليوم الذي يُصيب فيه أهل النّار من الحزن والكآبة وسواد الوجه ما يُصيبهم" [٢٠٧].

وقيل إنّ ذلك لتذكيرهم بما سيُنقذهم منه -عزّ وجلّ- ليزيد في ابتهاجهم وسرورهم" [٢٠٨]، ولسّنن الآية الكريمة أنّ من كانت هذه صفاقم سيكون مآلهم إلى الجنّة خالدين فيها.

أمّا الذين لم يُقدّموا لأنفسهم سوى معصية الله والكفر به ورسوله، فجزاء سيّئة بمثلها -عدلاً منه ورحمة-، أمّا وجوههم فيغشاها ذلّة وهوان لمخالفة الله لهم.

يقول الطّوسي: "كأنّما أُلبست وجوه هؤلاء الذين كسبوا السيّئات قطعًا من اللّيل وهي جمع قطعة" [٢٠٩]، واللّيل ظلمة من اللّيل. وليس لهم من مانع يمنعهم عن ذلك، وحزاؤهم النّار وسيكون الخلود فيها هو مصيرهم المنتظر لا محالة.

---

[٢٠٥] أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدّمشقي، تفسير ابن كثير، ط. بدون، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١م، ج٢، ص٤١٦.

[٢٠٦] محمد بن علي بن محمد الشّوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التفسير، ط١، القاهرة، مكتبة مصطفى الحلبي وأخوانه، ١٩٦٤م، ج٢، ص٤٣٨.

[٢٠٧] أبو الفضل شهاب الدّين السيّد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج١١، ص١٠٢. (بتصرّف)

[٢٠٨] المصدر السّابق، ص١٠٣.

[٢٠٩] أبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١١، ص١١.

ج- مناسبة الآية للسّياق الكريم:

تتضح مناسبة الآيتين الكريمتين للسّياق الكريم قبلها من خلال قراءة السّورة الكريمة من أوّلها؛ إذ بدأت الآيات الأولى في إبطال شبه المشركين على القرآن[١١٦]، ويُلاحظ أنّ هاتين الآيتين قد وردتا ضمن الآيات التي تدعوهم إلى التّصديق بطريق التّرغيب مرّة وبالتّرهيب أخرى، فكما يُلاحظ أنّهما جاءتا بعد المثل الذي ضربه -سبحانه وتعالى- لهذه الحياة الدّنيا والذي يلفت فيه انتباه الكُفّار إلى عدم الاغترار بها، وأنّ الهدف من ذلك هو دعوته -سبحانه- كلّ عباده إلى دار السّلام. [١١٧]

فأتت الآيتان لمقابلة تعرض فيها جزاء المحسنين وصفات وجوههم، ثمّ جزاء الكافرين وصفات وجوههم، وما ذاك إلاّ نوع من التّرغيب والتّرهيب حتّى يتحقّق الهدف الأسمى وهو الدّعوة إلى دار السّلام الذي يتمنّاها -عزّ وجلّ- لعباده جميعًا.

أمّا عن مناسبة الآيتين لما جاء بعدهما فيبدو أنّ الآيات التالية لهما مباشرة تُبيّن أنّ الحشر سيكون للجميع في يوم معلوم يقطع فيه -عزّ وجلّ- بين المشركين وشركائهم، ويتبرّأ هؤلاء الشّركاء من عبادة من عبدوهم، ويُشهدون الله على أنّهم كانوا عنها غافلين، وعند ذلك تبلو كلّ نفس ما قدّمت من خير أو شرّ، وتُرَدّون إلى مولاهم -عزّ وجلّ- وحده ويضلّ عنهم آلهتهم المزعومة. [١١٨]

وهكذا بدا ارتباط كلّ من الآيتين -وما اشتملت عليه من وصف لوجوه المؤمنين ثمّ لوجوه الكُفّار يوم القيامة- ذلك الارتباط الذي يدعو كلّ قارئ للقرآن أن يُحاول جهده ليكون من أولئك الذين لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة، ليُصبح من أصحاب الجنّة الخالدين فيها.

---

(١١٦) عبدالمتعال الصّعيدي، **النّظم الفنّي في القرآن**، ط١ بدون، القاهرة، -بدون تاريخ-، مكتبة الآداب، ص١٣٩-١٤٠.

(١١٧) انظر: سورة يونس، الآيات ٢٤-٢٥.

(١١٨) انظر: سورة يونس، الآيات ٢٨-٣٠.

نعد هنا إلى نعتِ الآية الكريمة الأولى لفظة الحاسظ في قوله تعالى:[114] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

نلاحظ تقديم المُسند ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وشبه الجملة على المُسند إليه، وذلك للاختصاص[115]، فالحُسنى لا تكون إلاّ للذين أحسنوا لا غير، ولو أُخِّر هذا الجار والمجرور لما أعطى معنى الخصوصيّة المقصود.

ثمّ نأتي جملة ﴿أَحْسَنُوا﴾ بدلاً من (أمنوا) رغم ضرورة الإيمان وأهميّته لأنّه "إذعان النفس للحقّ على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللّسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح"[116]، إلاّ أنّ ﴿أَحْسَنُوا﴾ هنا أكثر سلاسة ومُشاكلة[117] لما بعدها وهي كلمة ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، فضلاً عن أنّ الإحسان "يُقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، يُقال أحسن إلى فلان، والثاني إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملاً حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: "الناس أبناء ما يُحسنون" أي منسوبون إلى ما يعلمون

---

(114) سورة يونس الآية ٢٦.

(115) عبدالقاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ط. بدون، (الرياض: ١٩٨٣م، دار المريخ)، ص١٩٦. (بتصرف). (لمزيد من التفاصيل انظر ما جاء في باب تقديم المُسند: محمّد أبو موسى، **خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)**، ط٢، (القاهرة، ١٩٨٠م، مكتبة وهبة)، ص٢١٨-٢١٩. (بتصرف).

(116) أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيّد كيلاني، ط. بدون، (بيروت، بدون تاريخ، دار المعرفة للطّباعة والنشر)، مادّة (ربو).

(117) المُشاكلة: وقوع الشيء بلفظ غيره لوقوعه معه أو في صُحبته. انظر: بكري شيخ أمين، **البلاغة في ثوبها الجديد (علم البديع)**، ص١٩٢. (بتصرف).

وما يعملونه من الأفعال الحسنة[١١٥]، فضلاً عن أنّ الإحسان أعمّ من الإتقان. إلاّ أنّه هنا أُريد به إحسان المؤمنين بالذّات لأنّ الحسنى فُسِّرت بالجنّة[١١٦]، والجنّة لا تكون إلاّ للمؤمنين، ثمّ تأتي بلاغة حذف المفعول به بعدها أَحْسَنُوا﴾[١١٧]، والذي يُعطي القارئ ثلاثة أو سادسها سعة في التفكير في تقدير هذا المحذوف، فما الذي يُمكن أن يُحسنه المرء لينال الجنّة؟! القول ثم العمل ثم كليهما؟! أم أنّ المراد إثبات معنى الإحسان للفاعل؟!

أمّا قوله الحسنى، فالمعلوم أنّها الجنّة ولكن ما قيل عن جملةِ أَحْسَنُوا﴾ واختيارها في السِّياق، يُقال هنا عن لفظة (الحسنى) والتفضيل السِّياقي لها عن لفظة (الجنّة) رغم اتفاق المُفسِّرين أنّها المراد بها الجنّة.[١١٨]

يقول صاحب التحرير والتنوير: "والحُسنى صفة لذي الأحسن، ثمّ عوملت معاملة الجنس فأدخلت عليها لام تعريف الجنس فبعدت عن الوصفيّة ولم تتبع موصوفها. وتعريفها يُفيد الاستغراق، مثل البشرى، ومثل الصّاغة التي جمعها الصّاغات. والمعنى: للذين أحسنوا جنس الأحوال الحسنى عندهم، أي فهم ذلك في الآخرة..."[١١٩].

ثمّ يمضي في قوله بأن أن يُبيّن فيه أنّ القرآن قد عبّر لفظ (الحُسنى) فضلاً بالعلية على الجنّة ونعيمها من حصول المثلاث العظيمة.[١٢٠]

---

(١١٥) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (حسن).

(١١٦) انظر ص ٢٧ من البحث.

(١١٧) هو من إيجاز الحذف. في تقدير: انظر: أحمد أحمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨م، مكتبة وهبة، ص٢٢٩.

(١١٨) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، ج٢، ص٤١٨ - وأبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١١، ص٢٠٦.

(١١٩) محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١١، ص١٤٦.

(١٢٠) المرجع السابق، ص١٤٦. (بتصرّف)

أمّا بأي قوله تعالى ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ فـ(الواو) عاطفة، أمّا لفظة (زيادة) فما أجمل ولا أبلغ من وقوعها هنا... لاسيّما إذا قورنت بلفظة أخرى قد يُظنّ أنّها تؤدّي نفس الغرض مثل (أكثر)؛ فالمعلوم أنّ الكثرة والقلّة لاستعمالان إلاّ في الكمّيّة المتصلة كالأعداد، قال تعالى: [٢٤٤] ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾، وقال أيضاً: [٢٤٥] ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

أمّا الزّيادة فمعناها: "أن يضمّ إلى ما عليه الشّيء في نفسه شيء آخر، يُقال زاده فازداد" [٢٤٦]، وقوله تعالى: [٢٤٧] ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً ﴾.

والزّيادة قد تكون محمودة كما هي في الآية الكريمة، أي النّظر في الخَلْق إلى وجه الله تعالى[٢٤٨]، وكما قال تعالى في موضع آخر: [٢٤٩] ﴿ زَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أي أعطاه من العلم والجسم قدراً يزيد على أهل زمانه.

وقد تكون الزيادة مكروهة مثل ما جاء في قوله تعالى: [٢٥٠] ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾.

ولا أدلّ على وجْه اختيار لفظة ﴿ زِيَادَةٌ ﴾ في السّياق من غيرها من الحديث الوارد عن صهيب عن النبي ـ ﷺ ـ قال: "إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، نادى منادٍ إنّ لكم عند الله موعداً، فقالوا: ألم يُبيّض وجوهنا ويُنجّنا من النّار ويُدخلنا الجنّة؟ قالوا: بلى، فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النّظر

---

[٢٤٤] سورة المؤمنون الآية ٧٠.

[٢٤٥] سورة البقرة الآية ٢٤٩.

[٢٤٦] أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادّة (زيد).

[٢٤٧] سورة يوسف الآية ٢٥.

[٢٤٨] أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادّة (زيد).

[٢٤٩] سورة البقرة الآية ٢٤٧.

[٢٥٠] سورة فاطر الآية ٤٢.

إليه[١٣١]، فالزيادة هنا هي نعيم مضاف إلى نعيم الجنّة وهي لذّة النظر إلى وجه الله ـ تبارك وتعالى ـ وهو أكرم لهم وأشرف، وهذا المعنى لايؤدّيه لفظ بديل مثل (أكثر).

ثمّ يأتي قوله: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا إحسانًا يليق بمكانتهم التي أعدّها لهم ـ عزّ وجلّ ـ يلزم وجوههم وصف ثالث يُعرفون به يوم القيامة وهو عدم غُشيان الظُّلمة أو ما يُشبه الدّخان لوجوههم، وقد يكون ذلك بسبب الكذب لكلام[١٣٢] بالنسبة لمن هم عكسهم.

أمّا قوله ﴿ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ فالمراد لايبدو على وجوههم أثر الذلّة التي تبدو على وجه الذّليل، وهو وصف صريح في مَن رضي الله عنهم وأدخلهم الجنّة، وتعريض بمن كسبوا السيّئات[١٣٣]، وعبّر بلفظ الوجه؛ لأنّه أكرم ما في الإنسان وأشرفه، ولظهور أثر السّرور والحزن عليه.[١٣٤]

ذلك ما جاء في تفسير هذه الجملة ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾.

إلاّ أنّي أرى في بحيء جملة ﴿ يَرْهَقُ ﴾ هنا دقّة وبلاغة أكثر من بحيء جملة أخرى قد تُؤدّي نفس المعنى وهي على سبيل المثال: (ولاتُعيب وجوههم رهق).

أمّا الدقّة فتبدو في تعدّي الفعل ﴿ يَرْهَقُ ﴾ على لفظ ﴿ وُجُوهَهُمْ ﴾ وما أضفاه هذا التّعدّي من إيحاء بالمعنى المراد.

---

(١٣١) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، مراجعة عبد الرحمن محمد عثمان، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤م، ج٤، ص٩٢، (باب ما جاء في رؤية الرّب تبارك وتعالى).

(١٣٢) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مسألة وهبي، قم، (بتصرّف).

(١٣٣) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١١، ص١٤٢. (بتصرّف).

(١٣٤) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٥، ص١٦٧. (بتصرّف).

ولمّا بلاغتها فنجد في إيجاز الحذف في التركيب ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ﴾ بدلاً من القول: (ولاأصيب وجوههم رهق ولا قتر ولا ذلة).

كذا يجدث الحذفُ في عجز اللفظ ﴿ قَتَرٌ ﴾ في السِّياق الكريم بدلاً من (غبار)، لتناسب جرسها مع جارها ﴿ يَرْهَقُ ﴾.

كذلك يُلاحظ أنّ لفظ ﴿ رِجْزٌ ﴾ هنا أكثر إيحاءً بمعناه من مرادفه (هوان)، فضلاً عن حَبْكه ورشاقته في سياق الآية الكريمة.

ثمّ يأتي في نفس الآية الكريمة قوله: [١٣٤] ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

ويُلاحظ أنّ الإشارة هنا إلى نفس الفئة المُتحدّث عنها وهم الذين (أحسنوا)، إلاّ أنّ الإشارة تأتي باللّفظ ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الذي لايُستخدم إلاّ للبعيد، وذلك لعلوّ شأنهم ورفعة منزلتهم عند خالقهم ـعزّ وجلّـ[١٣٥]، ولمْ لا يُشار إليهم بـ(أولئك) وهم أصحاب الجنّة الذين كُتب لهم الخلود فيها ؟!

ثمّ انظر إلى ضمير الفصل ﴿ هُمْ ﴾ وتوسُّطه بين المُسند إليه والمُسند وما أفاده من تأكيد الجملة[١٣٦]، فضلاً عن إفادته قصر الخلود عليهم دون سواهم.

كما أنّ في تقديم الجار والمجرور ﴿ فِيهَا ﴾ على الخبر ﴿ خَالِدُونَ ﴾ قصراً آخر يدلّ على أنّ الخلود مقصور على الجنّة دون سواها.[١٣٧]

---

[١٣٤] سورة يونس الآية ٢٦.

[١٣٥] عبد أبو موسى، خصائص التركيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)، ص١٥١.

[١٣٦] من المؤكّدات في الجملة توسُّط ضمير الفصل بين المبدأ والخبر. انظر: فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، ط١، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٥م، ص٢٧٨.

[١٣٧] من طرق القصر تقديم ما حقّه التأخير. انظر: الزمخشري، ص٢٩٢.

كما أنّ أحد في الإخبار بلفظ ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ بدلاً من (مسرورون) أهمّية كبرى، إذ إنّ الجنّة قد عُلم ما فيها من سرور وسعادة ونعيم ... ولا يحتاج الأمر إلى الإخبار عنها فيها مرّة أخرى، وإنّما ما يحتاج إليه السّامع إمكانيّة الاستمرار والخلود في هذا النّعيم أم عدم ذلك.

ونُلاحظ هنا أيضاً، جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ... ﴾ منفصلة عمّا قبلها لكمال الصّاقها معنويّاً بما قبلها، إذ إنّها نتيجة لما سبق، فلا يحتاج الأمر إلى عطفها.[١٣٩]

كذا قوله ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ عبارة عن جملة منفصلة عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال.[١٤٠]

وهكذا نقول أنّ جملة ﴿ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ﴾ استئنافيّة لا محلّ لها من الإعراب، كذا جملة ﴿ أَحۡسَنُواْ ﴾ صلة الموصول لا محلّ لها من الإعراب، أمّا قوله: ﴿ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ ﴾ فهي معطوفة على الاستئنافيّة "ويجوز أن تكون الواو حاليّة، والجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هم)، والجملة الاسميّة حال عامله الاستقرار الذي تعلّق به الجار"[١٤١]، وجملة هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ في محلّ رفع خبر ثانٍ للمبتدأ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾.[١٤٢]

أمّا قوله: [١٤٣]﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، فيُلاحظ ابتداء الآية بالواو العاطفة على ما قبلها، ونجد أيضاً المقابلة

---

(١٣٩) محمد الطّاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج١١، ص١٤٧. (بتصرّف)

(١٤٠) انظر ما ذُكر من شبه كمال الاتّصال في الفاصل رقم (٩٠) من هذا البحث.

(١٤١) محمود صافي، **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، ج١١، ص١١٦.

(١٤٢) المرجع السّابق، ج١١، ص١١٢.

(١٤٣) سورة يونس الآية ٢٧.

بين الآيتين: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ... ﴿ وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾... ﴿ لِتبيّن لنا السِّياق الكريم هذه المقابلة العمل وجزائه في آيتين متتاليتين، وحتى يربط العمل والجزاء في ذهن السّامع مباشرة وليدفعه إلى التدبّر والاختيار في آن واحد.

ويُعلّق أبو حيّان على صلة المؤمنين بـ﴿ أَحْسَنُوا ﴾ ، وصلة الكافرين بـ ﴿ كَسَبُوا ﴾ بقوله:

"وجاءت صلة المؤمنين أحسنوا، وصلة الكافرين كسبوا السّيّئات، تنبيهًا على أنّ المؤمن لما خُلِق على الفطرة وأصلها بالإحسان، وعلى أنّ الكافر لما خُلِق على الفطرة انتقل عنها وكسب السّيّئات، فجعل ذلك مُحسنًا وهذا كاسبًا للسّيّئات، ليدلّ على أنّ المؤمن سلك ما ينبغي، وهذا سلك ما لا ينبغي"[٢٤٤].

فالكسب كما ذكر الرّاغب هو: "ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اعتلاب نفع وتحصيل حظّ لكسب المال، وقد يُستعمل فيما يظنّ الإنسان أنّه يجلب منفعة ثمّ استجلب به مضرّة"[٢٤٥].

وهكذا يتبيّن لنا دقّة اختيار السّياق للفظ ﴿ كَسَبُوا ﴾ مع ﴿ السَّيِّئَاتِ ﴾ بدلاً من لفظ (فعل)، إذ إنّ فاعل السّيّئة يتوقّع الخير من ورائها ـ كما يظنّ هو ـ فإذا به لا يجني منها إلاّ عكس توقّعه، وللملاحظ أنّ الفعل (كسب) في القرآن جاء في حقل الصّالحات والسّيّئات إذ قال تعالى: ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾.

---

(٢٤٤) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ص١٤٢.

(٢٤٥) أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادّة (كسب).

(٢٤٦) سورة الأنعام الآية ١٥٨.

(٢٤٧) سورة الأنعام الآية ١٢٠.

أمّا الفعل (فعل) فمعناه "التأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإعادة أو غير إعادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجماد" [٢٥٥].

ومن خلال النظر في معنى كلٍّ من الفعلين (كسب، فعل) يدت دقّة تعبير الجملة: ﴿كَسَبُوا﴾ في سياقها، بدلاً من جملة (فعلوا السيّئات)؛ لأنّ كسب السيّئات يظلّ فيها للنفسة من قبل فاعلها وليست بمجرّد القيام بفعل عام.

ونُلاحظ أنّ جملة ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ اشتملت على إيجاز حذف في المقدر؛ إذ التقدير (وجزاء الذين كسبوا السيّئات جزاء سيّئة بمثلها).

والسيّئة تُريد بها إنّما الشّرك أو بمجرّد المعاصي بغير شرك [٢٥٦]. ولعلّنا نلمس من خلال هذه المقابلة بين القولين الكريمين: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ .. ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.. مدى الفضل والكرم الإلهي؛ فالمحسن يُجازى بالإحسان مع الزّيادة على ذلك ليكون هذا التصريح في السّياق الكريم حافزاً له على زيادة إحسانه في دنياه.

أمّا النسيء فلا يراد على إساءته شيئاً، لعلّه يدرك للعزى ويأصد العمرة من ذلك، وهو يدلّ كما ذكر الرّازي "على أنّ حكم الله في حقّ المحسن ليس إلاّ الفضل، وفي حقّ المسيئين العدل" [٢٥٧].

وقيل إنّ قوله: ﴿بمثلها﴾ في الآية جار ومجرور في محلّ رفع خبر، أي متعلّقة بمحذوف خبر قامت مقامه، والتقدير: (جزاء سيّئة كائن بمثلها..)، وقيل: "يجوز أن يتعلّق بجزاء، والتقدير: (جزاء سيّئة بمثلها كائن) فحُذف الخبر، أو يكون (جزاء)

---

[٢٥٥] أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (فعل).

[٢٥٦] محمد الشركاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج٢، ص٤٣٦.

[٢٥٧] الإمام فخر الرازي، التفسير الكبير، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج١٧، ص٠٠٨.

مرفوعًا على تقدير (فلهم جزاء سيّئة) فتكون (الباء) على هذا التقدير (في بمثلها) متعلّقة بمحذوف، كأنّه قيل لهم (جزاء سيّئة ثابت بمثلها)، أو تكون «زائدة»[١٤٦].

ويُلاحظ هنا تنكير لفظ (سيّئة) للتعميم، بمعنى: أيّ سيّئة كانت، مهما كبرت أو صغرت.[١٤٧]

ثمّ نأتي لمفاجئة التعبير القرآني في قوله: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ فالذلّة تعني الهوان، أمّا الرّهق فهو غشيان الأمر بقهر، وهنا يعني شدّة الذلّ والقهر لهم.. ولا يكفي السّياق الكريم للتعبير عن ذلّهم وهوانهم هذه الجملة المُعبّرة بل ينبغي أن يكون لهم أعوان مانع يمنع عنهم عذاب الله وجزاءه، فيقول: ﴿ مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ وهو تهديد وتأييس.[١٤٨]

ثمّ يأتي بوصف دقيق لوجه من أصابه الذلّ وأرهقه الهوان وصية الأمل فيقول تعالى في نفس الآية: [١٤٩]﴿ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾، فأيّ تعبير هو أكمل وأكثر دقّة من هذا ؟!

فالوجه لا يكون وجهًا مكشوفًا ومُضيئًا نقيًّا كالوجوه المؤمنة الطيّبة التي تحدّثت عنها الآية المقابلة السّابقة، بل أصبح لشدّة هوانه وذلّه وانكساره كأنّما أُلبس قطعة من سواد اللّيل بصعْب إزالتها أو إصلاحها. وقرأ ابن كثير والكسائي: (قِطَعًا)

---

(١٤٦) محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدّراية من علم التفسير، ج٢، ص٤٣٩.

(١٤٧) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١١، ص١٤٨.

(١٤٨) المرجع السّابق، ج١١، ص١٤٨.

(١٤٩) سورة يونس الآية ٢٧.

بسكون الطّاء، وهي تعني القطعة أي (بعض)، قال تعالى: [١٥٥]﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾، وقرأ الأعرون بفتح الطّاء (قَطَعًا)، وهي تعني جمع قطعة.[١٥٦]

وأرى في القراءة الثّانية مبالغة أكثر في أداء المعنى، إذ إنّ الوجه إذا أصيب بأكثر من قطعة سوداء يكون أكثر تشويهًا وبشاعة ممّا لو كُسي كلّه بقطعة سوداء واحدة ـ والله أعلم.

أمّا اللّفظ ﴿ مُظْلِمًا ﴾ فقيل إنّه "نعت لقوله ﴿ قِطَعًا ﴾ ، وقال أبو عليّ الفارسي: ويجوز أن يجعل حالاً، كأنّه قيل: أغشيت وجوههم قطعًا من اللّيل في حال ظلمته"[١٥٧].

ثمّ يأتي بعد هذا الوصف قوله: [١٥٨]﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، فيُشار بـ(أولئك) هنا إلى أصحاب النّار رغم قرب الحديث عنهم وذلك لخطارة مؤلّفهم والمخاطَبين، ثمّ يؤكّد المعنى الثّابت لهم في الآية الكريمة بتوسّط ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند، فضلاً عن قصْر الخلود على المذكورين دون سواهم، ثمّ يأتي الجار والمجرور ﴿ فِيهَا ﴾ سابقًا للخبر ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ ليبان قصْر خلودهم في النّار دون سواها، أمّا لفظ ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ هنا فهو أكثر دقّة في موقعه من لفظ (محرونون) الذي ينقل لنا معنى حزنهم في النّار دون خلودهم فيها، والإخبار بالخلود أكثر وقعًا هنا من الإخبار بالحزن.

وجملة: ﴿ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ صبر ثابت، أو حال من الذين كسبوا السّيّئات، وجملة: ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ مفصولة عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال.

---

[١٥٥] سورة هود الآية ٨١.

[١٥٦] الإمام عصر الزركلي، القصر الكبير، ج١٦، ص٨١ (بتصرّف).

[١٥٧] المرجع السّابق، ج١٦، ص٨١.

[١٥٨] سورة يونس الآية ٢٧.

الموضع الثالث:

أ- قال تعالى: [١٤٩]﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ب- المعنى العام:

تُشير الآية الكريمة إلى حال الذين أشركوا بالله يوم القيامة، وهو أن تُقرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بقيود وسلاسل تغلّهم، أمّا ملابسهم التي يلبسونها فهي من قَطِرَان وهو الذي تُطلى به الإبل[١٥٠]، وقيل هو النحاس المذاب في الحرارة، وقيل أصلها (قطرٍ آن) أي النحاس المُذاب أو الصّفر المُذاب[١٥١]، وذكر ابن كثير أنّ قوله ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ يعني: "بعضهم إلى بعض قد جمع بين القرناء أو الأشكال منهم كلّ صنف إلى صنفه، كما قال تعالى: [١٥٢]﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ "[١٥٣]، ولا يكتفي بذلك بل "تلفح وجوههم النار فتحرقها" [١٥٤]، وفعل كلّ ذلك هم جزاءً وِفاقًا لأعمالهم وما كسبوه من الآثام في دنياهم. بينما يجزي الصّادقين بصدقهم وأعمالهم المُحسنة ما يستحقّونه، فالله -عزّ وجلّ- عالم بعمل كلّ نفس، سريع الحساب.[١٥٥]

---

[١٤٩] سورة إبراهيم الآيات ٤٩-٥١.

[١٥٠] قطرانٌ: أي تداوى به الإبل من الجرب.

[١٥١] عبد بن حرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٣، ص٢٥٧. (بتصرف)

[١٥٢] سورة الصّافّات الآية ٢٢.

[١٥٣] أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، ج٢، ص٥١٦.

[١٥٤] عبد بن حرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١٣، ص٢٥٧.

[١٥٥] المصدر السّابق، ج١٦، ص٢٥٨.

جـ- مناسبة الآية للسّياق:

بالعودة إلى أوّل السّورة الكريمة نُلاحظ أنّها اشتملت على أغراض مختلفة كلّها مرتبطة بالدّعوة والإيمان بها، أو التّحذير من عدم ذلك[١٦٢]، وبيان اتّحاد الغرض من الكتب المنزلة[١٦٣]، وترهيب المشركين وترغيبهم[١٦٤]، والآية الكريمة التي بين أيدينا: ﴿وَسَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ هي ضمن آيات الترهيب من سوء العاقبة التي تنتظر الكافرين وتكذيبهم.[١٦٥]

د- دراسة الألفاظ والتّراكيب:

لدراسة الآية التي اشتملت على وصف وجوه الكافرين يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ لابدّ من دراسة الآية السّابقة لها مباشرة لارتباطها بها ارتباطًا واضحًا وهي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾، فنُلاحظ تسمية الآية الكريمة للمشركين بالمجرمين لأنّ "أصل الجَرْم قطع الثّمرة عن الشّجر"[١٦٦]، ويُقال: "رجل جَارِم، وقوم جرام، وثمرة جرام، والجُرامَة ردىء التّمر المجروم"[١٦٧].

---

[١٦٢] انظر: سورة إبراهيم الآيات من ١-٣.

[١٦٣] انظر: سورة إبراهيم الآيات من ٤-١٨.

[١٦٤] انظر سورة إبراهيم، الآيات من ١٩-٤٩.

[١٦٥] سورة إبراهيم الآية ٥٠.

[١٦٦] عبد المتعال الصّعيدي، **النّظم الفنّي في القرآن**، ص١٦٢. (بتصرّف)

[١٦٧] سورة إبراهيم الآية ٤٩.

[١٦٨] أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادة (جرم).

[١٦٩] المصدر السّابق، مادة (جرم).

"ثمّ استمع ذلك لكلّ اكتساب مكروه"[٢٧٤]، وهكذا تتضح دقّة السّياق في اختيار لفظة المجرمين بدلاً من الكافرين في موضعها؛ لمناسبتها لما جاء في تعليل هذا العذاب في قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢٧٥] إذ الجزاء من جنس العمل ـ كما هو معلوم.

أمّا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فالمقصود به يوم القيامة، وقد جاء بطريقة تركيب الظّرف (يوم) مع (إذ) لأنّه معلوم من السّياق أيّ يوم هو من خلال الآية السّابقة لها مباشرة وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، فلو قيل يوم القيامة لكان ذكرًا ممحوضًا فضلاً عن عدم التّناسب الصّوتي لخاتمي اللّفظتين مع رفيقتهما في السّياق.

ثمّ تأمّل قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ فلفظة ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أصلها القاف والرّاء والنون، يقول عنها ابن فارس: "القاف والرّاء والنون أصلان صحيحان، أحدهما يدلّ على جمع شيء إلى شيء، والآخر شيء يتأتّى بقوّة وشدّة"[٢٧٦].

والأصل الأوّل هو المراد هنا إذ يُقال قارنت بين الشّيئين، أمّا القران فهو الحبل يقرن به شيئان، والقَرَن الحبل أيضًا[٢٧٧]، والملاحظ أنّ اللّفظة جاءت بصيغة اسم المفعول مع تضعيف عينها، لتدلّ على المبالغة في الجمع وليس لمجرّد الجمع، بل إنّ هذا الصّوت الخارج من حرف الرّاء المشدّدة ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ لوحي بشدّة السّحب والإرغام على هذا الاقتران والشّد في القيود والأغلال لهؤلاء الكفّار وقرنائهم من

---

[٢٧٤] المصدر السّابق، مادة (جرم).

[٢٧٥] سورة إبراهيم الآية ٥١.

[٢٧٦] سورة إبراهيم الآية ٤٩.

[٢٧٧] أبو الحسن أحمد بن زكريا بن فارس، **معجم مقاييس اللّغة**، مادة (قرن).

[٢٧٨] المصدر السّابق، مادة (قرن).

الشياطين يجتمعون فيها ـ ومن أحوالـ كما اجتمعوا في دنياهم على المعاصي ـ والعياذ بالله.

أمّا قوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ فالسّرابيل مأخوذة من الفعل (سربل) وهي جمع مفردها سربال أي قميص[١٩٦].

وفي ﴿ قَطِرَانٍ ﴾ أكثر من قراءة، وفي بعضها معنى مختلف عن غيره، فقيل: (قَطِرانٍ) وهي تعني: "قطران الإبل التي تُهنأ به، قاله الحسن وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم"[١٩٧]، وروي أنه النّحاس[١٩٨].

وقرأ عيسى بن عمر: (قِطْرَانٍ) بفتح القاف وتسكون الطّاء، وفيها قراءة ثالثة بكسر القاف وتسكون الطّاء (قِطْرانٍ)، أمّا القراءة الرّابعة فهي (قِطْرٍ آنٍ) رُويت عن ابن عبّاس وأبي هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير ويعقوب: والقطر: النّحاس والصّفر المُذاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾، والآنُ: الذي قد انتهى إلى حرّه"[١٩٩].

أمّا قوله: ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فالجملة ﴿ وَتَغْشَىٰ ﴾ في محلّ نصب، وهي معطوفة على الجملة الحاليّة [٢٠٠]، والمقصود هنا "اضرب وجوههم النار فتغشاها" [٢٠١] أيْ تُحيطُها [٢٠٢]، وكأنّ التغطية هنا مناسبة لحالة الخزي الذي أصابهم من سوء

---

(١٩٦) المصدر السّابق، مادّة (سربل).

(١٩٧) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**، ج١، ص٣٦١٤. "المقصود بتهنأ أي تطلى به الإبل من الجرب الجاقع به".

(١٩٨) المصدر السّابق، ج١، ص٣٦١٤.

(١٩٩) سورة الكهف، الآية ٩٦.

(٢٠٠) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**، ج١، ص٣٦١٤.

(٢٠١) محمود صافي، **الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه**، ج٣، ص٢١٢.

(٢٠٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)**، ج١، ص٣٦١٤.

(٢٠٣) أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادة (غشي).

أعمالهم، ويُلاحظ هنا مجيء اللّفظ (يغشى) بصيغة المضارع ليدلّ على استمراريّة هذه التغطية وعدم زوال الستار عن وجوههم فضلاً عمّا أفاده تقديم المفعول به ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ على الفاعل وتوسّطه بين الفعل (تغشى) وفاعله ليدلّ على تخصيص تلك الوجوه بتغطية الستار وعذابها الذي لا يكاد يُفارقهم، فهو وصف لازم لوجوههم، وما ذاك إلاّ نتيجة أعمالهم وما كسبوه في حياتهم الدنيا، فيقول الربّ ـعزّ وجلّـ:[١٨٧] ﴿و لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، فلام التعليل في القول ﴿لِيَجْزِيَ﴾ جاءت مُستقرّة في مكانها مُعبّرة عن غائية مُتوقّعة لأعمال هؤلاء الذين لا يستحقّون إلاّ ما كسبوا من آثام وكفر بذلك اليوم الموعود، فالله ـعزّ وجلّـ سريع الحساب.

الموضع الرابع:

أ ـ قال تعالى: [١٨٨] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ وُوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

ب ـ المعنى العام:

يذكر ـسبحانه وتعالىـ في الآية الكريمة وصفًا لوجوه المؤمنين بأنّها "حسنة بهيّة مشرقة مسرورة"[١٨٩] ترى وجه ربّها عيانًا، وقد ذكر ذلك صريحًا في حديث رسول الله ـﷺـ عندما سأله بعض النّاس عن رؤية ربّهم يوم القيامة فقالوا: "وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تُضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا، يا رسول

---

[١٨٧] سورة إبراهيم الآية ٥١.

[١٨٨] سورة القيامة الآيات من ٢٢-٢٥.

[١٨٩] أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٠٧.

الله. قال: فإنكم لا تضارُّون في رؤيته تلك الساعة، ثمّ يتوارى، ثمّ يطلع فيعرّفهم نفسه، ثمّ يقول: أنا ربّكم فاتبعوني...إلخ»[١٢٠].

وفي حديث عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة لمن ينظر إلى جناته وزوجاته ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غُدوة وعشيّة، ثمّ قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ...»[١٢١].

وقيل إنّ هذه الوجوه نظرت إلى الخالق وحقّ لها أن تنضر بعد أن نظرت إلى خالقها، وهي وجوه المؤمنين من غير شكّ.[١٢٢]

أمّا وجوه الفجّار ـ والعياذ بالله ـ فتكون كالحة في ذلك اليوم الوجوه مستيقنة هلاكها، عابسة مكتئبة منتظرة ما حلّ بها من سوء العاقبة ودخول النار. [١٢٣]

جـ ـ مناسبة الآيات للسِّياق:

تبدو مناسبة الآيات الكريمات للسِّياق من خلال تأمّل الآيات السّابقات في السّورة الكريمة، إذ تحدّثت عن يوم القيامة وعظمة الهول ـ جلّ وعلا ـ وقدرته على جمع العظام وتسويتها بعد أن كانت رميمًا، ثمّ قدرته على إبراز كلّ الآيات الدّالّة على صدق ذلك اليوم الذي يستقرّ فيه جميع خلقه إلى مقرّهم ذلك اليوم الذي يُنبّأ فيه الإنسان بما قدّم وأخّر.[١٢٤]

---

[١٢٠] أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، ج٤، ص٩٨.

[١٢١] القصار السّابق، ج٤، ص٩٣.

[١٢٢] أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج٤، ص٤٥١. (بتصرّف)

[١٢٣] أبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٢٩، ص١٩٤. (بتصرّف)

[١٢٤] انظر: سورة القيامة، الآيات من ٦-١٥.

فيكون في ذلك اليوم شاهد على نفسه وإن اعتذر بالقول لقد قد أتى من اللائم أو ارتكب من المعاصي.

ثمّ ذكرت الآيات التالية حرص النبيّ ﷺ على حفظ القرآن وعدم نسيانه، وطمأنته الله تعالى له بتكفّله بحفظه وجمعه، وأنّ ما عليه إلاّ الاستماع والمتابعة لجبريل في قراءته.[١٩٢]

ثم عودة الآيات للحديث عن الناس وأصنافهم وحثّهم للدّنيا وعدم اكتراثهم بالآخرة، وهنا بدأ وصف الوجوه الناضرة وهي وجوه المؤمنين في الآخرة، الذين يعملون في دنياهم لآخرهم، ثمّ وجوه الكافرين في الآخرة الذين لم يهتمّوا في دنياهم بذلك اليوم، ولم يعدّوا له عدّتهم من الأعمال الصّالحة.[١٩٣]

ثمّ بدت مناسبة الآيات[١٩٤] لما بعدها في أنّ الآيات التالية تحدّثت عن أهوال يوم القيامة، وما يُصيب الكافرين فيه، ثمّ عن أصل خلقه ـسبحانه وتعالى ـ وقدرته ـعزّ وجلّ ـ على أن يُحيي الموتى كما خلقهم من قبل.[١٩٥]

ـ دراسة الألفاظ والتراكيب:

لنعد هنا إلى نصّ الآيات الكريمات لفظة لفظة، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

يُلاحظ بداية الآية الكريمة بلفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ وهي جمع، مفرده (وجه)، "وهو الجارحة المعروفة، قال تعالى:[١٩٦] ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾، واستعمل في

---

[١٩٢] انظر: سورة القيامة، الآيات من ١٣-١٩.
[١٩٣] انظر: سورة القيامة، الآيات من ٢٠-٢٥.
[١٩٤] انظر: سورة القيامة، الآيات من ٢٠-٢٥.
[١٩٥] انظر: سورة القيامة، الآيات من ٢٦-٤٠.
[١٩٦] سورة القيامة الآيات من ٢٢-٢٥.
[١٩٧] سورة المائدة الآية ٦.

مستقبل كلّ شيء وفي أشرفه، فقيل: وجه كلّ ووجه النهار، لأنّه أوّل ما يستقبلك من الإنسان، وأشرف ما في ظاهر البدن»[٢٠١].

وربّما عُبِّر عن الذّات بالوجه مثل قوله تعالى: [٢٠٢]﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

وفي الآية الكريمة أريد بالوجه الجارحة المعروفة، وعُبِّر بالوجه مع إرادة جملة الإنسان كلّه إذ إنّ رهبة الموقف وأهمّيته تدعو المرء إلى التحفّز والانتظار بكلّ مشاعره وكيانه وبدنه، وعلى هذا فهي مجاز مرسل علاقته الجزئيّة.[٢٠٣] فالآية الكريمة عبّرت بلفظ ﴿ وُجُوهٌ ﴾ مع إرادة الكلّ لأنّ الوجه هو أوّل وأكرم ما يلقاك من الإنسان فضلاً عن كونه أشرف ما فيه.

أمّا صيغة النكرة في اللّفظ ﴿ وُجُوهٌ ﴾ فجاءت « للتنويع والتقسيم »[٢٠٤]، وجاز الابتداء بالنكرة هنا لأنّها تخصّصت بقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾[٢٠٥]، وقيل إنّه ابتدأ بالنكرة « لأنّ الموضع موضع تفصيل »[٢٠٦]، أمّا لفظ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فهو « معمول لناضرة »[٢٠٧].

---

(٢٠١) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مادة (وجه)، (بتصرّف).

(٢٠٢) سورة الرّحمن الآية ٢٧.

(٢٠٣) المجاز المرسل: استعمال اللّفظ في غير ما وضع له في اللّغة لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، والعلاقة في "مرسل" ملابسة ومناسبة غير المشابهة وله علاقات، عُدّت منها الجزئيّة، وشرطها أن يكثر هذا المجاز له مريد الخصائص في الكلّ. انظر: أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط١٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٩٦. (بتصرّف)

(٢٠٤) عبد القاهر بن طاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، ج١٢، ص٣٧٦.

(٢٠٥) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٨، ص٣٨٩.

(٢٠٦) أبو الفضل شهاب الدّين الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني**، ج٢٩، ص١٨٩. ووقف العلّامة الزّجّاج أبو حيّان في الرّدّ على ابن عطيّة.

(٢٠٧) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٨، ص٣٨٩.

وقوله:﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ اسم فاعل من الفعل (نَضَرَ) وهو "أصل صحيح يدلّ على حُسن وجمال وحلوص. منه النَّضْرة: حسن اللَّون، ونَضَّرَ يُنَضِّر. ونضَّر الله وجهه: حسَّنه ونوَّره"[٢٠٥]. ويُقال هذا في كلّ مُشْرِقٍ حسن.

يقول الآلوسي: "وجوه كثيرة وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم إذ تقوم القيامة، هيّة مُتهلِّلة من عظيم السرّ، يُشاهد عليها نضرة النعيم" .وهو خبر للمبتدأ ﴿ وُجُوهٌ ﴾[٢٠٦]، وقرأها زيد بن علي (نَضِرة) بغير ألف. [٢٠٧]

ثمّ انظر إلى قوله:﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وما أفاده تقديم الجار والمجرور على قوله: ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ من أهمّية النظر إلى الرّب ـعزّ وجلّـ، فضلاً عن دقّة تعبير اللّفظ (ربّ) في مكانه من السّياق وإضافته إلى الهاء العائدة عليهم؛ إذ إنّ الربّ تعني " المَلِك والسيّد والمُدَبِّر والمُرَبِّي والمُنعِم "[٢٠٨]، ويُراد بها الله ـعزّ وجلّـ ملك الملوك. فهم ينظرون إلى ربّهم رغبة إليه ورهبة منه، يسعدون برؤيته ويرجون عطاءه وعفوه ـسبحانه وتعالى ـ. وقيل:

"معنى كونها ناظرة إلى ربّها أنّها تراه تعالى مستغرقة في مطالعة جماله، بحيث تغفل عمّا سواه، وتُشاهده تعالى على ما يليق بذاته سبحانه"[٢٠٩].

ومن الجانب النحوي اللّفظ ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ ﴿ وُجُوهٌ ﴾ أو نعت لـ ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ ، و ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ متعلّق بـ ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾[٢١٠].

---

(٢٠٥) أبو الحسين أحمد بن زكريّا بن فارس، **معجم مقاييس اللّغة**، مادة (نضر).

(٢٠٦) أبو الفضل شهاب الدّين الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج٢٩، ص١٨٢.

(٢٠٧) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج١٠، ص٣٨٨.

(٢٠٨) محمد مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، القاهرة، بدون تاريخ، مادة (ربب).

(٢٠٩) أبو الفضل شهاب الدّين الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، ج٢٩، ص١٨٢.

(٢١٠) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ج٢٩، ص١٧٩. (بتصرّف)

وقيل: قد يكون المقصود على حذف مضاف والنظر بمعنى الانتظار أي إلى إتمام ربّها منتظرة، ولكنّ هذا القول بأنّ الحذف خلاف الظّاهر.[٢١٥]

والرّجّح هنا الرّأي الأوّل، وهو النّظر على حقيقته وبما يليق بجلاله ـعزّ وجلّـ إذ ذكرت كتب الصّحاح الأحاديث الواردة عن رسول الله ـﷺـ في صحّة رؤية المؤمنين لربّهم ـعزّ وجلّـ يوم القيامة ـوقد ذكر البحث شيء منها قبل ذلكـ.[٢١٦]

هذا وقد اشتملت اللّفظتان ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ و ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ على جناس ناقص مُحرّف[٢١٧]، وسجع مطرّف أكسبها توافقًا وانسجامًا في الجرس والصّوت واضحين.

ثمّ جاء قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ فجاءت الآية بالواو العاطفة على الجملة الاستئنافيّة السّابقة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ لتصبح هذه الآية ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ معطوفة على ما قبلها لا محلّ لها من الإعراب.[٢١٨]، كما أنّ الواو أفادت الوصل بين هذه الآية وسابقتها.[٢١٩]

---

[٢١٥] أبو الفضل شهاب الدّين الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني: ج٢٩، ص١٨٢.

[٢١٦] انظر: ص (٣٠- ٤٢) من هذا البحث.

[٢١٧] انظر: أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، وقد ذكر الجناس النّاقص في عدة حروف وشكلها وترتيبها مع أمثلتها في ترجمة. انظر: فصل حسن مثاني: البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، ط١، منشأة المعارف، ١٩٨٧م، دار الفرقان للنّشر والتّوزيع، ص٣٠١.

[٢١٨] محمود صافي: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: ج٢٩، ص١٧٨.

[٢١٩] منع الوصل بين الآيين بالواو لوقوعهما معًا فصلاً عن صلتهما بمحذوفين في اليمين. انظر ما جاء حسن شروط الفصل والوصل بكتاب شيخ أمين: البلاغة في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ط٣، بيروت، ١٩٩٠، دار العلم للملايين، ص١٥٩.

وما قبل عن ﴿ وُجُوهٌ ﴾ قبل ذلك يُقال هنا، إذ المراد بها الكثرة وبيان النوع الآخر من الوجوه يوم القيامة كما تقدّم[٢١٩] هذه الآية ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ الآية السابقة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ .

وقوله ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أعيد هنا للتأكيد على ذلك اليوم فضلاً عن أهمّيّة إعادة اللفظ لتوافق الفرص مع الأبنين قبلها، أمّا قوله ﴿ بَاسِرَةٌ ﴾ فهي وجوه الكافرين الكالحة لتيقّنها من العذاب الواقع بها لا محالة، ولمّا لا تكون كالحة كئيبة ما دامت حُجبت عن النظر إلى جمال الكمال ـعزّ وجلّـ، يقول سيّد قطب: "هي الوجوه الكالحة المقبضة العبسة، المحجوبة عن التطلّع والنظر، بخطاياها وارتكاساتها وكثافتها وانطماسها. وهي التي يُدخلها ويُحرقها ويفتح عليها اليسر والكلوحة توقّعها أن تملأ ها الكارثة القاصمة للظّهر المُحطّمة للفقار.. الفاظعة.. وهي من التوقّع والتوجّس في كرب وكلوحة وتقلّص وتغيّض.."[٢٢٠]

لمّ بأتي قوله ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ وهو استئناف بياني لبيان سبب هذا العبوس الذي أصابها[٢٢١]، وعلى ذلك يكون بين الأبنين فصل لشبه كمال الاتّصال[٢٢٢].

أمّا قوله: ﴿ تَظُنُّ ﴾ فهو فعل "تعين توقن أو يغلب على اعتقادها وتتوقّع أن يفعل ها.."[٢٢٣]، ويُلاحظ هنا دقّة تعبير الفعل ﴿ يُفْعَلَ ﴾ بصيغة المبني للمجهول وذلك لما يحتويه معنى الجملة من وقوع العذاب هولاء، وذلك هو شأن القرآن

---

(٢١٩) سبق توضيح هذا القرّ في هامش رقم (٢٠٢).

(٢٢٠) سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط١١، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢م، ج٦، ص٣٧٧٦.

(٢٢١) محمد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٢٩، ص٣٠٦. (بتصرّف)

(٢٢٢) سبق التعريف بهذا الفصل في هامش رقم (٩٠) من هذا البحث

(٢٢٣) محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٨، ص٣٨٩.

الكريم لا يُنسب فيه العذاب إلى القول ـ عزّ وجلّ ـ إذ إنّه ـ تعالى ـ كتب على نفسه الرّحمة... قال تعالى:[٢١٦] ﴿ وَجَاءَ بَيْنَهُمْ جِهَنَّمُ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾، وقال عزّ من قائل: [٢١٧]﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾، بينما جاء في موضع آخر قوله تعالى: [٢١٨]﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾، وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم.

كذا نُلاحظ تقديم الجار والمجرور ﴿ بِهِ ﴾ وكان الأول تقديم ﴿ فَازَةً ﴾ لأنّه نائب فاعل لـ﴿ يُعْمَلَ ﴾ ، ولعلّ في هذا التقديم دليل على عظيم اختصاص العذاب بهم دون سواهم.

أمّا قوله: ﴿ فَازَةً ﴾ فأصله (فَقَرَ)، يقول ابن فارس: "الفاء والقاف والرّاء أصلٌ صحيح يدلّ على افتراج في شيء من عضو وغير ذلك، من ذلك الفَقَار الظّهر، الواحدة فَقَارَةٌ، سُمّيت للتحزوز والفصول التي بينها"[٢١٩].

والفقير: الكسور فَقَار الظّهر. وقيل سُمّي الفقير بذلك لذلّه ومسكنته كأنّه مكسور فَقَار الظّهر.[٢٢٠] والفاقرة هي الدّاهية، كأنّها كاسرة لفَقَار الظّهر.

ونُستخلص من هذه المعاني اللّغويّة السّابقة: أنّ هؤلاء الكفّار يظنّون بل ويوقنون بما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة إلى الحدّ الذي تُتصبّ فيه ظهورهم، بل إنّي أرى دقّة ظاهرة في تفضيل لفظ ﴿ فَازَةً ﴾ على غيره في السّياق، إذ المقام مقام

---

[٢١٦] سورة الفجر الآية ٢٣.

[٢١٧] سورة الرّحمن الآية ٣٥.

[٢١٨] سورة التّوبة الآية ٧٢.

[٢١٩] أبو الحسين أحمد بن زكريّا ابن فارس، **معجم مقاييس اللّغة**، مادّة (فقر).

[٢٢٠] المصدر السّابق، مادّة (فقر). (بتصرّف)

جزاء على أعمال قُدِّمت من قبل، فكما تعلم جاءت الآيات السَّابقة[٢٢٢] شَيَّنة وصف وجوه المؤمنين النَّاظرة إلى ربِّها في شوق وسعادة ظاهرين.

أمَّا قوله: ﴿[٢٣]وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، فهي وصف لوجوه قوم لم يُقدِّروا لأنفسهم ما يُدَّخر لهذا اليوم العصيب، لم يفعلوا شيئًا يُنقذهم من العذاب المُنتظر، فهم فقراء العمل، فقراء الجهد، فقراء الإيمان، فلا يأمل لهم إلاَّ لفظ الفاقرة، فاختراه لا يكون إلاَّ من جنس العمل، لذا حَسُنَ مجيء لفظ ﴿فَاقِرَةٌ﴾ وفُضِّل على رديفه مثل (داهية) هذا فضلاً عن مناسبته للفاصلة قبله.

الموضع الخاصي:

أ ـ قال تعالى: [٢٢٤]﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾.

ب ـ المعنى العام:

وضَّحت الآيات الكريمات وصفًا لكلٍّ من وجوه المؤمنين والكافرين في ذلك اليوم الموعود، فأثبتت الإشراق والبهجة والإضاءة لوجوه السُّعداء؛ لما تُشاهده من النَّعيم المُقيم والبهجة الدَّائمة، بينما الغبار والكُدرة والظُّلمة تعلو وجوه الأشقياء ـ والعياذ بالله ـ لسوء ما ينتظرونه من عذاب مُقيم.[٢٢٥]

---

[٢٢٢] انظر: سورة القيامة الآيات ٢٢-٢٣.

[٢٢٣] سورة القيامة الآيات ٢٤-٢٥.

[٢٢٤] سورة عبس الآيات من ٣٨-٤١.

[٢٢٥] عبد بن حمد الصعدي أبو السُّعود، فصيح أبي السُّعود: إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٩، ص١١٣. (بتصرف)

جـ- مناسبة الآيات للسِّياق:

تبدو مناسبة الآيات المذكورة آنفًا للسِّياق الكريم من خلال قرابة الآيات السَّابقة لها مباشرة ثمَّ الآية اللاحقة لها، أمَّا صلتها بما قبلها فتبدو في أنَّ الآيات السابقة[٣٣٣] تحدَّثت عن أهوال ذلك اليوم الذي لا يلتفت فيه الإنسان لأحدٍ من أهله لشدَّة شغله بنفسه وما ينتظره فيه، فكان من المناسب أن تأتي بعد ذلك الآيات التي تحمل وصفًا لوجوه السُّعداء ثمَّ لوجوه الأشقياء والتعريف بهم[٣٣٤].

د- دراسة الألفاظ والتراكيب:

لدراسة الآيات الكريمات لابدَّ من العودة إليها لفظة لفظة، وآية آية، يقول تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾.

يُلاحظ ابتداء الآية باللَّفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ وكما ذكرنا في أصيل الآية السَّابقة من سورة القيامة[٣٣٥] هي جمع مفرده (وجه) وهو مبتدأ حسوه ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، وجاز الابتداء بها رغم كونها نكرة لأنَّ المقام مقام تقسيم وتنويع.

أمَّا قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهو ظرف مضاف لـ(إذ) مُتعلِّق بالخبر ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: "وأفيد لتأكيد الرَّبط بين الشَّرط وجوابه وأطول الفصل بينهما، والتقدير: (وجوه مسفرة يوم يجرّ المرء من أحبه إلى آخره. وقد أفادت إعادة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عن ربط الجواب بالفاء"[٣٣٦].

---

(٣٣٣) انظر: سورة عبس الآيات من ٣٤-٣٨.

(٣٣٤) انظر: سورة عبس الآيات من ٣٨-٤٢.

(٣٣٥) انظر: ما قبل من هذا الفقط في ص ٤٦-٤٧ من البحث.

(٣٣٦) عبد القاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج١٥، ص١٣٤.

وقوله ﴿ مُسْفِرَةٌ ﴾ اسم فاعل من أسفر الصّبح إذا أضاء؛ أي ذات الإسفار.

جاء في المفردات في غريب القرآن:

"السَّفر كشف الغطاء، ويختصُّ ذلك بالأعيان نحو سَفَر العمامة عن الرّأس والخمار عن الوجه، وسَفَر البيت كنسُهُ بالسِّفر أي المكنس، وذلك إزالة السَّفر عنه وهو التراب الذي يُكنس منه، والإسفار يختصُّ بالوَّن نحو:[٢٢٥] ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أي أشرق لونه[٢٢٦]".

ونرى أنّ التعبير بقوله ﴿ مُسْفِرَةٌ ﴾ مناسب في مكانه، بليغ في محله، إذ إنّ الآيات المقابلة لها ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ تتحدّث عن الغبار الذي يعلو وجوه الكفرة الفجرة، ولما أنّ "السَّفر" هو التراب فإنّ في تعبير لفظة ﴿ مُسْفِرَةٌ ﴾ دقّة واضحة عن تعبير المرادف له (مشرقة)؛ لأنها تعني خلوّ هذه الوجوه المؤمنة من التراب والغبار، فهي لم تعمل شيئًا يُلوّث وجوهها أو يُكثّرها كوجوه غيرهم من الكفّار.

ثم انظر إلى ما يُتمّم هذا الوصف ويزيده قيمة وإشراقًا وهو قوله تعالى بعد ذلك:[٢٢٧] ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾، فقوله ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ مجاز عقلي علاقته المحليّة، إذ إنّ الوجوه موضع يحلّ به الضّحك والاستبشار[٢٢٨]، وقوله ﴿ ضَاحِكَةٌ ﴾ كناية عن فرط السّرور والسّعادة التي تشعر بها نفوس المؤمنين فتظهر ذلك على وجوههم، أمّا قوله ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ فهو كناية عن فرحهم بما ينتظرهم في ذلك اليوم من إكرام ونعيم فاخرين، بسبب ما قدّموه في حياتهم من أعمال صالحة،

---

[٢٢٥] سورة المدثر الآية ٣٤.

[٢٢٦] أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (سفر).

[٢٢٧] سورة عبس الآية ٣٩.

[٢٢٨] محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٠، ص١٣٨. (بتصرف)

فقد قيل: إنّ بياض الوجوه يوم القيامة من قيام اللّيل، وقيل: من آثار الوضوء، وقيل: من طول ما أغبرت في سبيل الله.[٢٦١]

ومهما كانت الأسباب فالعبرة هنا بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

ثمّ انظر إلى الوصف المقابل، وهو وصف وجوه الكُفّار ـ والعياذ بالله ـ إذ يقول تعالى:[٢٦٢] ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾، فالواو عاطفة للجملة على الجملة الاستئنافيّة السّابقة ﴿ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾. والجملة المعطوفة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ لا محلّ لها من الإعراب، وما قيل في ﴿ وُجُوهٌ ﴾ و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ قيل ذلك ـ يُقال هنا ـ[٢٦٣].

أمّا قوله ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ فهي الكدرة والغبار، وهي: "كناية عن تغيّر الوجه للغمّ"[٢٦٤].

ويُلاحظ هنا نفي الغبار والغرور في قوله ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ ولم يكن التّعبير بالقول (ووجوه يومئذ مغبرة)، أي لم يستعمل اسم الفاعل (مُغبرة) في مُقابل ﴿ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾ في الآية السّابقة، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ في استعمال الغبار والغرور (على) مضافًا إلى الضّمير العائد على وجوه الكافرين دليل على غلبة كُدرة اللّون وشحوبة الوجوه أكثر ممّا لو قيل (مُغبرة)، لاسيّما وأنّ في تقديم الغبار والغرور ﴿ عَلَيْهَا ﴾ على قوله ﴿ غَبَرَةٌ ﴾ معنى التّخصيص، أي تخصيص تلك الوجوه بالغبرة المذكورة، وجملة ﴿ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ في محلّ رفع نعت لوجوه.[٢٦٥]

---

(٢٦١) عبد بن حميد السعدي أبي النضر، تفسير أبي النضر: إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، ج٩، ص٦١٣. (بتصرف)

(٢٦٢) سورة عبس الآيات ٤٠-٤١.

(٢٦٣) انظر ما جاء في مراجعة الآية السّابقة مباشرة في هذا البحث.

(٢٦٤) أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (غبر).

(٢٦٥) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ج١٢، ص٢٦٦.

أمّا قولهم ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ فهي جملة في محلّ رفع خبر لقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ..﴾.

ويُلاحظ هنا أنّ الجملة ﴿تَرْهَقُهَا﴾ والتي تعني تعلوها وتغشاها، جاءت بصيغة المضارع رغم كون السّابقة لها جملة إسميّة، وهو دليل على استمراريّة هذه العمْلة وملازمتها لهم مع تجدّد السّواد والظّلمة على هذه الوجوه ـ والعياذ بالله.

وإذا عدنا إلى معنى (الرّهَق) وعلمنا أنّه: «غشيان الأمر بقهر»[٢٤٦] أدركنا كيف أُضيفت هذه الوجوه بالسّواد والظّلمة بقهر وبشدّة لا يُمكن التصرّف فيها أو تغييرها، وذلك جزاء وفاقًا لسوء أعمالهم والعدم إلمامهم إذ جاء في السّياق ـ بعد ذلك ـ تعريف لهم، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ ، فالإشارة جاءت بـ﴿أُولَئِكَ﴾ رغم قرب الحديث عنهم في السّياق لانحطاط منزلتهم وتدنّيها عن منزلة المؤمنين.

أمّا قوله: ﴿هُمُ﴾ فهو ضمير الفصل جاء لتأكيد الحديث عنهم ولاختصاصهم بالمعنى المُراد في السّياق وهو الكفر والفجور.[٢٤٧]

وأتبع وصف ﴿الْكَفَرَةُ﴾ بوصف ﴿الْفَجَرَةُ﴾ مع أنّ وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من حساسة العمل، فذكر وصفيهم النّاتجين على مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل[٢٤٨]، كما أنّ في عدم وجود عاطف بين الصّفتين دليل على اتحاد الوصفين في داخلهما.[٢٤٩]

---

(٢٤٦) أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (رهق).

(٢٤٧) يحيى بن حمزة العلوي، كتاب الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط بدون، (بيروت: دار الكتب العلميّة، دون تاريخ)، ج٢، ص١٤٤-١٤٥. (بتصرّف)

(٢٤٨) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٥، ص١٣٨. (بتصرّف)

(٢٤٩) المصدر السّابق. (بتصرّف)

الموضع السادس:

أ- قال تعالى: [٢٠٢] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، وقوله: [٢٠٣] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾.

ب- المعنى العام:

بُيّن القول -تبارك وتعالى- وصفًا لوجوه الكُفّار، هو نتيجة لاستهانتهم في الدّنيا، فبيّن أنها ذليلة بعزيها الخزي والهوان[٢٠٤] ويبدو ذلك من خلال قوله تعالى في موضع آخر: [٢٠٥] ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾.

وذكر الطّبري أنّ هذا الخشوع يكون في النار، كذلك العمل والنّصب يكون في النار أيضًا لتكثرها وإعراضها في الدّنيا فعملها -سبحانه وتعالى- وينصبها في النار[٢٠٦] . "وقال ابن عبّاس: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدّنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكُفّار أهل الكتاب، مثل الرّهبان وأصحاب الصّوامع، لا يقبل الله منهم اجتهادًا في ضلال، بل يدخلون النار يوم القيامة، ومعنى النّصب التّعوب في العمل بالنّصب"[٢٠٧]

---

[٢٠٢] سورة الغاشية الآيات من ٢-٤.

[٢٠٣] سورة الغاشية الآيات من ٨-١٠.

[٢٠٤] الإمام الفخر الرّازي، التفسير الكبير، ج٣١، ص١٥٦. (بتصرّف)

[٢٠٥] سورة الشّورى الآية ٤٥.

[٢٠٦] أبو جعفر بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣٠، ص١٩٠. (بتصرّف)

[٢٠٧] علاء الدّين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن، تفسير الخازن (لُباب التّأويل في معاني التّنزيل)، ط١، القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥م، ج٤، ص١٣٧.

وقيل لأنّها لم تعمل في الدّنيا فأعملها الله ـتعالىـ وأنصبها في النّار كمعالجة السّلاسل والأغلال، وخوض في النّار كما تخوض الإبل في الوحل، وقيل يجرون على وجوههم في جهنّم، وقيل يُكلّفون ارتقاء جبل من حديد فيها[٢٠٥]، وهذه الوجوه تلفحها النّار وتُحرق بها.[٢٠٦]

أمّا الآيات الأخرى[٢٠٧] فهي تصف لنا الوجوه المؤمنة وهي وجوه أصحاب أهل الثّواب والمغفرة، فيذكر أنّها ذات نضحة ونعّم وحسن وإشراق[٢٠٨]، قال تعالى في موضع آخر: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ وهم راضون عن أعمالهم في دنياهم، فوضوح في آخرهم عن ثواب هذه الأعمال وجزائها.[٢٠٩]

جـ ـ مناسبة الآيات للسّياق:

أكّدت الآية الأولى من السّورة الكريمة[٢١٠] وقوع الغاشية وهي التي اختلف المفسّرون فيها، فمنهم من ذكر أنّها القيامة التي تغشى النّاس بالأهوال[٢١١]، ومنهم من قال: إنّها النّار تغشى وجوه الكُفّار[٢١٢].

ومهما اختلفت الأقوال، فإنّ المراد واحد لأنّ كليهما غاشية يذعل فيها النّاس، ويخشى الكثير وجوه الجميع..، لذا كان من المناسب للسّياق هنا أن يصف وجوه الكُفّار الذين تبدو عليهم آثار البلاء الذي يُكابدونه بسببها سواء أكان ذلك

---

(٢٠٥) المصدر السّابق، ج٦، ص٦٣٧. (بتصرّف)

(٢٠٦) الإمام الحبر الزّاهر، القسّ المكيّ، ج٣١، ص١٥٢.

(٢٠٧) انظر: سورة القائمة، الآيات من ٨-١٠.

(٢٠٨) الإمام الحبر الزّاهر، القسّ المكيّ، ج٣١، ص١٥٣. (بتصرّف)

(٢٠٩) سورة المطفّفين الآية ٢٤.

(٢١٠) ابن جرير بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣٠، ص١٦٢. (بتصرّف)

(٢١١) انظر: سورة الغاشية الآية ١.

(٢١٢) ابن جرير بن جرير الطّبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٣٠، ص١٦٣. (بتصرّف)

(٢١٣) المصدر السّابق، ج٣٠، ص١٦٩. (بتصرّف)

البلاء، مشوهًا مُعَذبًا بخوف ورهبة أو ذلّة وصَغار، أو نصب وتعب لكثرة ما كُلّفوا به من عمل في النار عوضًا عن تقصيرهم في الدّنيا.[٢٦٤]

وبعد أن استكملت الآيات الحديث عن هذه الفئة وما ينالها من عذاب وهوان ـسواء أكان ذلك من مشرب أو مأكلـ[٢٦٥]، كان من المناسب أن يتحدّث السّياق الكريم عن وصف الوجوه المقابلة وهي وجوه المؤمنين التي عمل أصحابها في دنياهم ونالوا ما نالوه في سبيل دينهم وقناعتهم، وهي الوجوه التي ستنعم بالفضل والتعيم والرّضى من الله ثمّ فرحًا بما عملت ـمن قبلـ، وبما نالته من ثواب في ذلك اليوم، فأخراه من جنس العمل والأجر على قدر المشقّة.[٢٦٦]

فـ دراسة الألفاظ والتراكيب:

لدراسة هذه الآيات بيانيًّا علينا أن نعود إلى كلّ آية لفظة لفظة، وتركيبًا تركيبًا، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ...﴾، للاحظ بداية الآية بلفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ وهو نكرة رغم كونه مبتدأ؛ لأنّ المقام يحال لتنويع وتفسيم، فضلاً عن إفادة التقليل والتحقير من شأن أصحاب هذه الوجوه، وقد قيل إنّ التعبير بلفظ الوجه قد أُريد به أهل هذه الوجوه؛ لأنّ الوجه هو أشرف ما في الإنسان[٢٦٧]، فضلاً عن أنّه الجزء المُختصّ والمُعبّر عن أحاسيس الإنسان ومشاعره، وهذا اشتملت الآية هنا على اختار مرسل علاقته الجزئيّة، إذ إنّ الخشوع يكون في البدن كلّه وليس في الوجه فحسب، وما الوجه إلاّ جزء له مزيد اختصاص بذلك الخشوع.

---

[٢٦٤] انظر ما جاء في النّص العام قبله الآيات من هذا البحث.

[٢٦٥] انظر سورة الغاشية الآيات من ٤-٧.

[٢٦٦] انظر سورة الغاشية الآيات من ٨-١٦.

[٢٦٧] علاء الدّين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الخازن، تفسير الخازن المُسمّى لُباب التأويل في معاني التنزيل، ج٦، ص٢٣٧.

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ حالة على يوم القيامة الذي تحدث فيه الغاشية، وقد سبق بيان أصل الكلمة[٢٦٩]، والتنوين عوض عن المُضاف إليه، أي يوم غشيان الغاشية.

وقوله: ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ عبّر بالخشوع هنا وهو يعني "الضراعة"، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب، ولذلك قيل فيما روي: إذا خشع القلب خشعت الجوارح[٢٧٠]، قال تعالى:[٢٧١] ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾.

نقول عبّر بلفظة ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ في السِّياق الكريم ليُظهر من خلال ذلك مدى ضراعة قلوب هذه الفئة لربّها وخوفها من عقابه ـ في ذلك اليوم ـ ولعلّ ذلك الإحساس مُضاعف عندهم لتفريطهم في الدّنيا وعدم تفكرهم، بل واستهزائهم بهذا اليوم وبمن عمل له من المؤمنين.

وفي تقديم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ على مُتعلّقه ﴿ خَـٰشِعَةٌ ﴾ دليل على الاختصاص، أي مخصوصيّة الخشوع في ذلك اليوم دون غيره، وليس الاهتمام ـ كما ذكر في التحرير والتنوير ـ[٢٧٢] لأنّ الخشوع لم يكن يحدث من هؤلاء الكُفّار إلاّ في ذلك اليوم.

أمّا التركيب ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴾ فهو استئناف بيانيّ، لأنّه وجب الفصل بين التركيب الأوّل وهو قوله تعالى:[٢٧٣] ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴾، وكأنّه قيل بعدها ـ ما به، أو ما شأنه؟)... فتأتي الإجابة: [٢٧٤] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴾.

---

(٢٦٩) عند دراستنا هذا الخطّ في الآيات المذكورة سابقاً في هذا المبحث.

(٢٧٠) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (خشع).

(٢٧١) سورة المؤمنون الآية ٢.

(٢٧٢) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٥، ص٢٩٥. (بتصرف)

(٢٧٣) سورة الغاشية الآية ١.

(٢٧٤) سورة الغاشية الآية ٢.

أمّا قوله تعالى: ﴿[٢٢٥] عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهما وصفان آخران جاء بهما السِّياق الكريم للتعريض بأهل الشقاء بتذكيرهم بأنهم تركوا الخشوع لله والعمل بما أمر والنَّصب في القيام بطاعته، فجزاؤهم خشوع ومذلّة أو عمل مذلّة، ونصب إرهاق.[٢٢٦]

ويُلاحظ هنا تقديم ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ على ﴿تَاصِبَةٌ﴾ لأنّ العمل بأي أوّلاً وهو الدّأب والاستمراريّة على ما أمروا به في الآخرة من حرّ السّلاسل والأغلال والخوض في النّار، ثمّ يكون النّصب وهو التعب، يُقال: (نصِب) بالكسر ينصب نصبًا إذا تعب، والمعنى: أنّها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله[٢٢٧].

أو أنّه المقصود إشارة إلى عملهم السّيّئ في الدّنيا الذي لا طائل منه؛ فكان نتيجة تعبهم في الآخرة وعدم ارتقائهم به.[٢٢٨]

أمّا قوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ فهي جملة في محلّ رفع خبر لـ﴿وُجُوهٌ﴾[٢٢٩]، وليست وصفًا لها وإنّما لبيان جزائها في الآخرة كما في الآيات التالية لها مباشرة.[٢٣٠]

أمّا قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾، فهو وصف آخر للوجوه المؤمنة التي بدأت فيه الآية كما يُلاحظ بنفس الطّريقة التي بدأت به الآية المُتحدّثة عن وجوه الكُفّار، إذ تكرّر لفظ ﴿وُجُوهٌ﴾ مع كونه مبتدأ لأنّ المقام مقام تنويع، فضلاً عن أنّ

---

(٢٢٥) سورة الغاشية الآية ٣.

(٢٢٦) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٣٠، ص٢٩٦. (بتصرّف)

(٢٢٧) محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التفسير، ج٥، ص٤٢٨.

(٢٢٨) المصدر السّابق، ج٥، ص٤٢٨. (بتصرّف)

(٢٢٩) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ج٣٠، ص٣١٢.

(٢٣٠) انظر: سورة الغاشية الآيات من ٤-٧.

النكرة أفادت هنا معنى التعظيم، ولا أدلّ على ذلك من قوله ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ بعد ذلك.. لأنّ أصحاب الوجوه التي توصف هذا الوصف لا تستحقّ أقلّ من التعظيم والتفخيم، فلفظ ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ هو اسم فاعل من النّعمة، "وهي الحالة الحسنة، وبناء النّعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والرِّكْبة، والنِّعْمة النِّعَم وبناؤها بناء المَرّة من الفعل كالغَرْبة والشَّتْمة، والنِّعْمة للجنس أُقيل للقليل والكثير"[٢٨٢]، قال تعالى:[٢٨٣]﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾.

وذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير: "أنها يجوز أن تكون مشتقّة من نَعُم بضمّ العين ينعُم بضمّها الذي مصدره نُعُومة، وهي لِيْن وبهجة المرأى وحسن النظر، ويجوز أن تكون مشتقّة من نعِم بكسر العين ينعَم مثل حذِر، إذا كان ذا نعمة أي حُسْن العيش والترف"[٢٨٤].

وأرى أنّ هذه اللّفظة قد جمعت بين كلّ هذه المعاني الجميلة بلفظها الموضوع في السّياق، وهل من نعمة وفضل وبهجة وحبور أكثر ممّا يلقاه المؤمن في ذلك اليوم الذي يلقى فيه ربّه فيجزيه على حُسن عمله، ويبدو ذلك واضحًا على صفحة وجهه البَيّنة الطّاهرة؟!!

كما أرى في اسم الفاعل ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ دِقّة وجمالاً أكثر ممّا لو قيل (مُنَعَّمة)، لأنّ في قوله ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ جاء المدُّ بعد النون وقبل العين، ومع هذا المدّ يشعر السّامع أو القارئ له بهدوء نفسي يتيح التأمّل والتفكر في هذا النّعيم الذي يعيشه أصحاب هذه الوجوه، وهو يتناسب تمامًا مع الحالة النفسيّة التي يعيشون فيها، في حين أننا لا نشعر بذلك مع اللّفظة المُرادفة لها (مُنَعَّمة) أو (مُنَعِّمة)، هذا فضلاً عن تناسب

---

(٢٨٢) أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة (نعم).

(٢٨٣) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٢٨٤) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج١٠، ص٢٩٩.

الفقطة بعرسها مع ما جاء بعدها في السّياق وهو قوله: [٢٨٤] ﴿ لَسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾.

أمّا التركيب ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ فقد جاء مفصولاً عمّا قبله لأنّه استئناف بيانٍ لكونه سؤالًا عن استفهام مُقدّر تفرضه الفقطة السّابقة، وهو "هل من حديث الغاشية ما هو مُغاير لهذا القول؟ أي ما هو أنس ونعيم القوم الآخرين"[٢٨٥].

هذا وبين التراكيب: [٢٨٦]﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ وقوله[٢٨٧]﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ مقابلة واضحة لتضادّ المعاني بينهما ورغم أنّ قوله: [٢٨٨]﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ "خبر لوجوه"[٢٨٩]، إلاّ أنّنا نشعر بوصف الوجوه مع هذا الخبر، وأيّ وصف هو أجمل من الرّضى والاطمئنان؟!

إنّه رضى عن ثقة وتأكّد إذ يقول ـ عزّ من قائل ـ: ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ فالسّعي: في الأصل يُستعمل للمشي السّريع دون العدو، ويستعمل للحثّ في الأمر سواءً كان لخير أو شرّ.

قال تعالى: [٢٩٠]﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾، وقال: [٢٩١]﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾، كما أنّه أكثر ما يستعمل السّعي في الأفعال المحمودة.[٢٩٢]

---

[٢٨٤] سورة الغاشية الآيات من ٩-١٢.

[٢٨٥] محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٥، ص٢٩٨.

[٢٨٦] سورة الغاشية الآيات من ٢-٤.

[٢٨٧] سورة الغاشية الآيات من ٨-١٠.

[٢٨٨] سورة الغاشية الآية ٩.

[٢٨٩] محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ج٣٠، ص٣١٣.

[٢٩٠] سورة البقرة الآية ١١٤.

[٢٩١] سورة التحريم الآية ٨.

فالمؤمنون راضون عن سعيهم في طاعة الله ومرضاته في الدنيا، وهاهم يجنون ثمرة ذلك السّعي في آخرهم بسعادة أبديّة واطمئنان لا يزول في جنّة عالية ظلال انتظارهم لها وتطلّعهم إليها.

وبما أنّ الوجه هو المخارجة التي تظهر عليها المشاعر والانفعالات الكامنة في النفس، فكان انتساب السّعي والرّضى للوجوه مجاز مرسل علاقته المحليّة.

يقول سيّد قطب عن هذه الوجوه: "وجوه يبدو فيها النّعيم، ويفيض منها الرّضى، وجوه تنعم بما أمّلت وأحمد ما عملت، فوجدت عقباه حبوًا، وتستمتع بهذا الشّعور الرّوحي الرّفيع، شعور الرّضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها، وليس أروح للقلب من أن يطمئنّ إلى الخير ويرضى عاقبته، ثمّ يراها محفّلة في رضى الله الكريم وفي النّعيم"[٢٢٣].

---

[٢٢٢] أبو القاسم الحسين بن محمد الرّاغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، دمشق وبيروت، الدار الشامية، ط١، ١٤١٢هـ، ص٤٨٦.

[٢٢٣] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٨٧٢.

تعقيب وموازنة:

إننا أعيد النظر إلى الآيات القرآنية السّابقة يُلاحظ ارتباط وصف الوجوه بعمل أصحابها، فالبياض والنضرة والإشراق والسُّرور والسّعادة لوجوه المؤمنين الذين أخلصوا حياتهم وبذلوا ما بذلوه من جهد وجهاد بالنفس والمال في دنياهم حتّى وصلوا إلى هذا الجزاء المحمود.

بينما السّواد والظّلمة والكآبة والقبح الشّر لوجوه الكُفّار والجاحدين الذين بخلوا بالنفس والمال للإعتداء لهذا اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم.

كما يلاحظ تجريد الوصف مجملاً في بعض الآيات في حين تفصيله في موضع آخر...ففي الوصف المجمل للوجوه قوله تعالى:[٢٤٥] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾، وقوله تعالى: [٢٤٦] ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، وقوله:[٢٤٧] ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾.

بينما نجد نفس الوصف أكثر تفصيلاً في آيات أخرى مثل قوله تعالى:[٢٤٨] ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾، وقوله: [٢٤٩] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ

---

[٢٤٥] سورة آل عمران الآيات ١٠٦-١٠٧.

[٢٤٦] سورة الزمر الآية ٦٠.

[٢٤٧] سورة إبراهيم الآية ٥٠.

[٢٤٨] سورة يونس الآيات ٢٦-٢٧.

[٢٤٩] سورة القيامة الآيات من ٢٢-٢٥.

﴿ تَكَادُ أَن يَتَمَيَّزَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ ، وقوله: [٢٩٩] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾، وقوله: [٣٠٠] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾، وقوله: [٣٠١] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾.

تلك هي عادة القرآن الكريم في عرض المعاني وذكر القصص والموضوعات، فراه موجزًا المعنى في موضع، بينما تراه مُطنبًا في موضع آخر، كما ورد في قصة النبي موسى ـ عليه السلام ـ ولعلّ في ذلك أهدافًا منها: التشويق وحبّ المتابعة وطرد الملل والسآمة عن القارئ أو السّامع.

كما يُلاحظ اختلاف الوصف في موضع عنه في موضع آخر، فانظر إلى قوله تعالى: [٣٠٢] ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَتْ وَجُوهَهُمْ مِّنْهُ مَشَوْا فِيهِ ﴾، وقوله: [٣٠٣] ﴿... وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾، ففي الآية الأولى بدا الوصف فنيًّا مُعبّرًا ومُصوّرًا لشدّة الظُّلمة التي تُحيط هذه الوجوه الذّليلة... ولعلّ في قراءة من قرأ (قِطَعًا) بفتح الطّاء[٣٠٤] أكثر مبالغة إذ إنها دليل على إصابة الوجه بأكثر من قطعة سوداء، وبذا يكون أكثر تشويهًا وبشاعة مما لو كُسي بقطعة سوداء واحدة.

أمّا في الآية الثّانية فيبدو بلاغة الوصف من جانب تغطية النّار للوجه كاملاً مع استمرارية هذا الغطاء وعدم زواله عنهم، وذلك مُناسب تمامًا لحالة المخرج الذي أصابهم لسوء ما عملوا وعدم قدرتهم على التّملّص من أصنافهم.

---

(٢٩٩) سورة عبس الآيات من ٣٨-٤٢.

(٣٠٠) سورة الغاشية الآيات من ٢-٤.

(٣٠١) سورة الغاشية الآيات من ٨-١٠.

(٣٠٢) سورة يونس الآية ٢٧.

(٣٠٣) سورة إبراهيم الآية ٥٠.

(٣٠٤) الإمام الحصر الرّازي، التفسير الكبير، ج١، ص٨١.

كذا نُلاحظ فرقًا واضحًا بين قوله تعالى: [٣٠٣] ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾، وبين قوله: [٣٠٤] ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، ففي قوله: [٣٠٥] ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ وصفت الآية الكريمة شدّة حرق الوجوه بالنار إلى الحدّ الذي يُؤدّي إلى كشرها وهو شدّة تقلّص الشفتين عن الأسنان، ممّا يُؤدّي إلى التشوّه الشديد ـ والعياذ بالله ـ[٣٠٦].

أمّا في قوله: [٣٠٧] ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، فسود سواد الوجه نتيجة مُوقّعة لما فعلوه من الكذب على الله ووصفه بما لا يليق به ـ عزّ وجلّ ـ كالتّحاد الولد ـ سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرًا ـ وهذا السّواد قد يكون بسبب مكوثهم في النار واحتراق جلود وجوههم جزاءً ووفاقًا لما فعلوه، إذ قال تعالى بعد ذلك: [٣٠٨] ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

وفي قوله تعالى: [٣٠٩] ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾، نُلاحظ وصفًا للوجوه من جهة الإضاءة والإشراق والسّعادة بالنّسبة للمؤمنين، بينما نجد الكُدرة والغبار والسّواد وصفًا لاحقًا بوجوه الكُفّار، وكلّه وصف خارجيّ للوجوه.

---

(٣٠٣) سورة المؤمنون الآية ١٠٤.

(٣٠٤) سورة الزّمر الآية ٦٠.

(٣٠٥) سورة المؤمنون الآية ١٠٤.

(٣٠٦) محمد بن عبد الصادق أبي الشّعر، تفسير أبي السّعود (إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ج٦، ص١٩٦. (بتصرّف).

(٣٠٧) سورة الزّمر الآية ٦٠.

(٣٠٨) سورة الزّمر الآية ٦٠.

(٣٠٩) سورة عبس الآيات من ٣٨-٤١.

وبأن الوصف للوجوه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً...﴾، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، معبّرًا عن الحالة النفسيّة التي يشعر بها أصحاب تلك الوجوه، فالخشوع والتذلّل والخضوع مناسب للعمل والتعب الذي يُصيبها في ذلك اليوم الموعود.

أمّا الإحساس بالنعيم والرّضى، فشعور آخر توصف به الوجوه السّعيدة الرّاضية عمّا آتاها الله من فضله، ولِمَ لا يكون ذلك وقد أصبح مأواها عالي الجنان والفوز برضى الكريم المنّان؟!

ذلك هو وصف القرآن الكريم الذي يتناول الفكرة من جوانب مُتعدّدة؛ ليوفّيها حقّها من الإبداع والتأثير، وليشغل السّامع إلى كلّ ما يُحيط هذا الموصوف من مشاعر وأحاسيس قد يكون تأثيرها أقوى من الوصف نفسه، ولِمَ لا يكون كذلك وهو منزل من الخالق الموحد للأشياء وأوصافها، والعالم بدقائقها وكنهها...؟!

وصدق ـ سبحانه وتعالى ـ في قوله عنه: ﴿... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

---

(٢١٤) سورة الغاشية الآيات من ٢-٤.

(٢١٥) سورة الغاشية الآيات ٨-٩.

(٢١٦) سورة النساء الآية ٨٢.

بفضل من القول وتوفيق تمّت رحلة العمل والدّراسة التي شاء ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون شاهقة في أسمى مجال وأكرمه، ألا وهو مجال الدّراسات البيانيّة في القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

كما شاء تعالى أن تتناول هذه الدّراسة وصف الوجوه يوم القيامة من خلال آيات كريمات انتسجت ـ كلّها من آي القرآن كلّه ـ بالنّظم البديع، والبلاغة العالية، والأسلوب الفذّ المتميّز.

إنّ إنّ البحث في وصف الوجوه أوقفنا على سِماتٍ عامّة تميّزها الوصف القرآني، بالإضافة إلى المميّزات الخاصّة بوصف الوجوه في ذلك اليوم.

أمّا السّمات العامة للوصف القرآني، فيبدو في اعتماد الوصف فيه على التصوير الذي لا يستغني فيه عن اللّون أو الحركة، أو الإيقاع والجرس، فضلاً عن تميّز هذا الوصف بالتقاط الحوار مع جرس الألفاظ وصوت العبارات فيه مع تآلفه، كلّ ذلك في السّياق لإبراز صورة تتمكّن في نفس قارئها وسامعها، فتملأ قلبه وحسّه، وتُثير وجدانه مع سيطرتها على فكره وكيانه[٣١٤]. واعتماد كلّ ذلك على عناصر الطّبيعة وما يُحيط بالإنسان ليكون أكثر تأثيراً فيه وليكون هو أكثر تفاعلاً معها.

ولا أدلّ على ذلك من وصف القرآن لنور الله عزّ وجلّ ـ وهو لا يُمكن أن يُضاهى بشيء ـ قال تعالى: ﴿٣١٥﴾ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... ﴾ إلخ.

---

[٣١٤] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص٣٠. (بتصرّف)

[٣١٥] سورة النور الآية ٣٥.

أمّا السِّمات الخاصّة التي وصل إليها البحث من آيات وصف الوجوه يوم القيامة فتبدو في:

- إنّ وصف الوجوه يوم القيامة جاء متناسبًا مع أعمال أصحابها، فالبِشر والبياض والإشراق والنَّضارة والفرح والاستبشار والسَّعادة والنعيم للوجوه المؤمنة ذات النفوس التقيّة.

أمّا الكآبة والسَّواد والغُبار والقتام والخزي والاحتراق فلوجوه الكُفّار والمُكذّبين.

- هذا وقد اهتمّت بعض الآيات بالوصف الخارجي للون الوجه كالبياض أو الإشراق لوجوه المؤمنين، والغبار والسَّواد والكَدرة لوجوه الكافرين[٣١٣]، بينما تناولت آياتٌ أخرى هذا الوصف من جهة تأثير الشّعور النفسي على أصحابها، فوصفت بعض الوجوه بالضّحك والاستبشار، وأخرى بالعبوسة والرُّعب، فحسن ما صنعت[٣١٤]، في حين وُصِفت وجوه أخرى بالكدّ والعمل والتّعب، لسوء ما عملت وما قدّمت في دنياها.[٣١٥]

- وعرضت بعض الآيات هذا الوصف عرضًا اتّسم بالإيجاز مع أداء المعنى بلا قصور، مثل قوله تعالى:[٣١٦] ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . إلخ ﴾، وقوله:[٣١٧] ﴿ . . . وَلَقَّنَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾. بينما أطنبت الأخرى في عرض نفس المعنى لتوضيحه وبيانه، مثل

---

(٣١٣) انظر: سورة آل عمران الآيات ١٠٦-١٠٧، وسورة يونس الآيات ٢٦-٢٧.

(٣١٤) انظر: سورة عبس الآيات ٣٨-٣٩، وسورة الغاشية الآيات من ٢-١١.

(٣١٥) انظر: سورة الغاشية الآيات من ٢-٤.

(٣١٦) سورة آل عمران الآية ١٠٦.

(٣١٧) سورة الإنسان الآية ١١.

قوله:[٣٣٣] ﴿ إِنَّمَا أُغْنِيَتْ وُجُوهُهُمْ فِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾،

وقوله:[٣٣٤] ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾.

ولعلّ البحث يُؤكّد في هذه المحالة ما أؤكّده كتب الإعجاز جميعًا وهو: إنّه رغم الاختلاف في جوانب الوصف وطرقه في القرآن الكريم، ورغم الإكثار فيه في موضع والإطناب في آخر، إلاّ أنّنا نجد دائمًا في كتاب الله العزيز نسقًا بديعًا، وبلاغة عالية، وقُدرة أسلوبيّة فذّة، ونظمًا متفرّدًا، يُعطي المعنى في أفصح لفظ وأبلغ تركيب وأجمل جرس وأفضل أداء، ولَمْ لا يكون كذلك وهو من عند الله تعالى المُتفرّد بالكمال والجلال؟! وصدق سبحانه في قوله عن:[٣٣٥] ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

---

[٣٣٣] سورة يونس الآية ٢٧.

[٣٣٤] سورة المؤمنون الآية ١٠٤.

[٣٣٥] سورة النساء الآية ٨٢.

فهرس الآيات
(مواضع الدّراسة والتحليل)

رقم الموضع	اسم السّورة	رقم الصفحة
الموضع الأوّل:		
الآيات ١٠٦-١٠٧	آل عمران	١٩
الموضع الثاني:		
الآيات ٢٦-٢٧	يونس	٢٥
الموضع الثّالث:		
الآيات ٤٩-٥١	إبراهيم	٣٨
الموضع الرّابع:		
الآيات ٢٢-٢٥	القيامة	٤٢
الموضع الخامس:		
الآيات ٣٨-٤١	عبس	٥٠
الموضع السّادس:		
الآيات ٢-٤	الغاشية	٥٥
الآيات ٩-١١	الغاشية	٥٥

مصادر البحث ومراجعه

١ــ القرآن الكريم.

٢ــ **الآمدي (الحسن بن بشر بن يحيى)**، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣ــ **الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيّد محمود)**، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط. جديدة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.

٤ــ **ابن جعفر (أبو الفرج قدامة)**، نقد الشعر، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م.

٥ــ **ابن رشيق (أبو علي الحسن)**، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٦ــ **ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريّا)**، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبدالسّلام محمد هارون، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٧١هـ.

٧ــ **ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل)**، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

٨ــ **ابن ماجة (أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني)**، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٢م.

٩ــ **أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي الغرناطي)**، تفسير البحر المحيط، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢م.

١٠ــ **أبو السعود (محمد بن محمد العمادي)**، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

١١ــ **أبو موسى (محمد محمد)**، التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان)، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٧م.

١٢ــ **أبو موسى (محمد محمد)**، خصائص التركيب، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة.
١٣ــ **إسماعيل (عز الدين)**، الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤م.
١٤ــ **امرؤ القيس (بن حجر بن الحارث بن عمر الكندي)**، ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.
١٥ــ **بدوي (أحمد أحمد)**، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٠م.
١٦ــ **البيومي (محمد رجب)**، البيان القرآني، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠١م.
١٧ــ **الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة)**، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، مراجعة عبدالرحمن محمد عثمان، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤م.
١٨ــ **الجعلي (إبراهيم طه)**، من بلاغة القرآن، ط بدون، مكتبة المتنبي، الدمام، دون تاريخ.
١٩ــ **الجوهري (إسماعيل بن حماد)**، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ط٣، على نفقة حسن عباس شربتلي، ١٩٨٢م.
٢٠ــ **حسين (طه)**، في الأدب الجاهلي، ط١٢، مكتبة دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ.
٢١ــ **حسين (عبدالقادر)**، القرآن والصورة البيانية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
٢٢ــ **الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي)**، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٣ــ **ذو الرمّة**، ديوان ذي الرمة شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي رواية الإمام أبي العباس ثعلب، تحقيق وتقديم عبدالقدوس أبو صالح، ط٢، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٤ـ **الرازي (الإمام الفخر الرازي)**، التفسير الكبير، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٢٥ـ **الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد)**، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيّد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٢٦ـ **الزبيدي (محمد مرتضى)**، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، المطبعة الخيرية بجمالية مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

٢٧ـ **الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي)**، الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، حقّق الرواية محمد الصادق قمحاوي، ط الأخيرة، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٢م.

٢٨ـ **الشايب (أحمد)**، الأسلوب (دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢٩ـ **الشوكاني (محمد)**، فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، ط٢، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٠ـ **شيخ (أمين بكري)**، البلاغة في ثوبها الجديد (علم المعاني)، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.

٣١ـ **شيخ (أمين بكري)**، البلاغة في ثوبها الجديد (علم البديع)، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩١م.

٣٢ـ **صالح (محمود)**، المفصّل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، ط١ مزيدة، بإشراف اللجنة العلمية بدار الرشيد، دار الرشيد، مؤسسة الإيمان، بيروت، ١٩٩١م.

٣٣ـ **الصعيدي (عبدالمتعال)**، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ط١٧، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٤ـ **الصعيدي (عبدالمتعال)**، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٥ـ ضيف (شوقي)، العصر الجاهلي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.
٣٦ـ الطاهر بن عاشور (محمد)، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس، بدون تاريخ.
٣٧ـ طبانة (بدوي)، معجم البلاغة العربية، ط٣، دار المنارة للنشر، جدة، دار الرفاعي للنشر، الرياض، ١٩٨٨م.
٣٨ـ الطبري (أبو جعفر بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط٣، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٨م.
٣٩ـ عباس (فضل حسن)، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان وعلم البديع)، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٨٧م.
٤٠ـ العسكري (أبو هلال)، كتابة الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ود.محمد البجاوي، ط٢، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٢م.
٤١ـ عصفور (جابر)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢م.
٤٢ـ العقاد (عباس محمود)، الفلسفة القرآنية، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٤٧م.
٤٣ـ العلوي (يحيى حمزة اليمني)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ضبط وتحقيق جماعة من العلماء، إشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٤ـ الغزالي (محمد)، نظرات في القرآن، ط٥، دار الكتب الحديثة، القاهرة، دون تاريخ.
٤٥ـ قنوه (يسري عبد الفتاح)، علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، ط٢، مؤسسة المختار، القاهرة، دار المعالم الثقافية للنشر، الإحساء، ١٩٩٨م.

٤٦ـ قيود (بسيوني عبد الفتاح)، علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، ط٢، مؤسسة المختار، القاهرة، دار العالم الثقافية للنشر، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

٤٧ـ القرطبي (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري)، تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، كتاب الشعب، القاهرة، بدون تاريخ.

٤٨ـ القرطاجنّي (أبو الحسن حازم)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.

٤٩ـ القزويني (محمد بن عبدالرحمن الخطيب)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي، ط٣، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١م.

٥٠ـ القزويني (محمد بن عبدالرحمن الخطيب)، تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، ط الأصوة، مكتبة مصطفى الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ..

٥١ـ قطب (سيد)، التصوير الفني في القرآن، ط٨، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

٥٢ـ قطب (سيد)، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعيّة الحادية عشر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٢م.

٥٣ـ لاشين (عبد الفتاح)، صفاء الكلمة، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٩٨٣م.

٥٤ـ الماعوري (عيسى)، أدب المهجر، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

٥٥ـ الهاشمي (أحمد)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط١٢ معدّلة ومنقّحة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٥٦ـ هلال (محمد غنيمي)، النقد الأدبي الحديث، ط٣، دار الثقافة، دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.